الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر . 2 .

معهد الأثار

دروس السنة الثانية

تخصص أثار إسلامية

وحدة العمارة والعمران في المغرب الإسلامي

إعداد الأستاذ: بوطبة محفوظ

السنة الجامعية: 2020 / 2021

محتوى وحدة العمارة والعمران في المغرب الإسلامي

السداسي الأول:

. الإطار الطبيعي.

. الملامح العامة للحضارة الإسلامية.

. العمران: مفاهيمه ودلالته الحضارية.

. منظور العمران الإسلامي.

. أهم مصادر العمران الكتابية.

. التحصينات الدفاعية.

. النسيج العمراني وشبكة الطرقات.

. أساليب البناء ومقوماته الفنية.

. أنواع المدن ونظامها التخطيطي.

. الوحدات الاقتصادية.

السداسي الثاني:

. الإطار الجغرافي والتاريخي والحضاري لبلاد المغرب.

. العمارة المغربية المبكرة.

. العمارة الزيرية.

. العمارة الحمادية.

. العمارة المرابطية.

. العمارة الموحدية.

. العمارة الزيانية و المرينية و الحفصية.

. أهم العناصر المعمارية.

السداسي الأول

الإطار الطبيعي

الموقع الفلكي و الجغرافي للعالم الإسلامي:

الموقع الفلكي :

خلصت الدراسات الجغرافية الحديثة إلى أن الأراضي الإسلامية الحالية تمتد بين نصفي الكرة الأرضية، فهي بذلك محصورة بين دائرتي عرض 48° و 54° شمال خط الإستواء، و دائرة عرض 13° جنوب خط الاستواء، بينما تمتد بين خطّي طول 141° شرقا و 45° غربا، فالعالم الإسلامي بذلك يمتد بين الشمال و الجنوب لمسافة تتجاوز 6200 كلم، و بين الشرق و الغرب لمسافة تتجاوز 19 ألف كلم، ما جعله يشغل مساحة تقدّر بحوالي 31688509 كلم^2 ، أي ما يعادل 22,2 % من إجمالي مساحة اليابس في العالم، و تتوزّع أرضية بين القارات الثلاث إفريقيا و آسيا و أروبا.

الموقع الجغرافي:

تناولت المصادر الجغرافية العربية حدود البلاد الإسلامية، و من بينها كتاب "صورة الأرض" لإبن حوقل (ق: 4 هـ / 10 م) الذي كانت قد تشكلت على عهده معالم المملكة الاسلامية، و ممّا جاء فيه أن الأراضي الاسلامية، " تمتد طولا من فرغانة إلى أرض المغرب و الأندلس " ، و يضيف ذاكرًا حدودها بقوله: " حدود المملكة الإسلامية من شرقيها أرض الهند و بحر فارس، و من غربيها مملكة السودان السكان على البحر المحيط، المتصلين ببراري أودغست و صحاريها اتجاه أوليل (طنجة) و شماليها بلاد الروم و ما يتصل بها من الأرمن واللّان و الرّان و السّرير و الخزر و الرّوس و البلغار و الصّقالية و طائفة من الترك، و من شماليها بعض مملكة الصّين و ما اتصل بها من بلاد الأتراك و جنوبيها بحر فارس.

المناخ :

الأقاليم المناخية :

إقليم المناخ الصحراوي:

هو أكبر الأقاليم المناخية في العالم الإسلامي، بحيث يشمل الصحراء الكبرى وصحراء الصومال بالجانب الإفريقي، ويسود بادية الشام وشبه الجزيرة العربية وصحراء أفغنستان وهضبة بلوخستان الصحراوية في باكستان وإيران وشمالي نطاق جمهوريات وسط آسيا الاسلامية بالجانب الأسيوي، ويتميز هذا الإقليم بالجفاف الشديد وندرة الأمطار التي لا تتجاوز 100 ملم / السنة، و ارتفاعا كبيرا لدرجة الحرارة نحو 60°، سجلت بالصحراء الكبرى.

إقليم مناخ البحر المتوسط:

يشمل هذا المناخ المناطق المطلة على البحر المتوسط من العالم الإسلامي، و تتمثل في سهول الرّيف في المغرب الأقصى، و التل في الجزائر و تونس، و إقليم برقة و الجبل الأخضر في ليبيا، و السهول الساحلية و السّفوح الغربية لمرتفعات الشام، و الأطراف الشمالية لمصر، بالإضافة إلى سواحل ألبانيا و تركيا و شمالي إيران و العراق و أذربيجان و بعض جهات البوسنة و الهِرسك، و من خصائصه إرتفاع درجة الحرارة خلال موسم الصّيف، و إعتدال الحرارة خلال الشتاء، و سيادة الجفاف صيفا، و سقوط الأمطار شتاء، و تقل به كلّما اتجهنا من الغرب إلى الشرق، حيث يقدر حدها الأدنى في بعض مناطقه ب 200 ملم و تفوق في البعض الآخر 1000 ملم / السنة.

إقليم المناخ المداري :

يسود الأطراف الجنوبية من العالم الإسلامي، ويتسم بتساقط الأمطار صيفا.

إقليم المناخ الإستوائي :

يمتد في نطاق ضيق و يشمل جزر أندونيسيا و ملديف بالإضافة إلى ماليزيا و جنوبي كلّ من نيجيريا و أوغندا و إفريقيا الوسطى و السودان و شمالي تنزانيا، و يتميّز بارتفاع درجة الحرارة طول العام، و هو أغزر مناطق العالم الاسلامي مطرًا.

الغطاء النباتي و الثروة الحيوانية :

لقد نتج عن تنوع المناخ و التربة ووفرة المياه تنوع الغطاء النباتي ووفرته، حيث تتوفر البلاد على مساحات واسعة من المراعي، أدت بدورها إلى وفرة الثروة الحيوانية و تنوعها، و قد استعملت في النّقل و الحروب في تحريك الألات لإستخراج المياه و طحن الحبوب و الزيتون، إضافة إلى تأمين الغذاء من ألبان و لحوم، و ساهمت أيضا في توفير المادة الأولية الصناعية من صوف و جلود و شمع و خيوط الحرير، وقد اشتهرت مدن المغرب بوفرة المواشي نذكر منها مدينة القلعة و المسيلة و تاهرت و جزائر بني مزغنّى بالمغرب الأوسط، و عرفت مدينة برقة بأقصى الحدود الشرقية لبلاد إفريقية بهذه الخيرات و زادت عن الحاجة، و قد لخّصها البكري في قوله:" و هي دائمة الرّخاء كثيرة الخير تصلح بها السّائمة و تنمى على مراعيها، و أكثر ذبائح أهل مصر و يحمل منها إلى مصر الصوف ...، و العسل ".

كما كان للغطاء النباتي دور هام في النّهوض بالصناعات الخشبية وتنشيط العديد من الحرف، وتوفير المادة الأوّلية للبناء، حيث إشتهرت القيروان و تونس بغابات الزيتون، و عرف إقليم بجاية بكثرة الخشب ما نهض بصناعة السفن بها، وإشتهرت خرسان بخشب العرعر و فاس بخشب البلّوط و الأرز و هي من أجود أنواع خشب البناء، و إشتهرت مدينة قُم بين مدينتي أصبهان و سادة بخشب الخلنج و هو من أجود خشب صناعة الأثاث.

المسطحات المائية:

البحار:

إن إتساع البلاد الإسلامية ساعد على توفّرها على سواحل كبيرة الإمتداد على بحر فارس و بحر الرّوم الذين قدمت الكتب الجغرافية صورة لهما في حدود الاسلام، حيث يمتدّ الأوّل من القَلزم بالخليج الأحمر (البحر الأحمر) إلى عبّادان ثمّ يقطع عرض الدّجلة فيصير على ساحل هذا البحر إلى مهروبان ثم ينتهي على الساحل إلى مدينة سينيز، ثم ينتهي البحر إلى جنابة ثم إلى سيراف ثم يتجاوزها على الساحل في مواضع متقطعة تعترض بها جبال و مفاوز إلى أن ينتهي إلى حصن إبن عمارة و ينتهي على ساحل البحر إلى هرموز من بلاد كرمان،

ثم يسير عليه اخذا شطه إلى الدّبيل مجمع التجارة من بلاد السّند، ثم ينتهي إلى ساحل بلدان الهند إلى أن يتصل بساحل التبت إلى ساحل الصّين.

أما بحر الروم، فمخرجه غربا من البحر المحيط (المحيط الأطلسي) حيث يبتدئ من بين الأندلس و طنجة من المغرب الأقصى، و يمتد باتجاه المشرق ملامسا سواحل بلاد المغرب و إفريقية و مصر و فلسطين و الشام، و يواصل البحر تشريقه إلى السويدية ميناء أنطاكية، و منها يغيّر إتجاهه غربًا و شمالا حتى يتجاوز حد مملكة الإسلام.

إن إطلالة البلاد الإسلامية على هذه المساحة الواسعة من المسطحات المائية التي تتشكل من عدد من البحار و المضايق (مضيق هرمز، مضيق باب المندب، مضيق جبل طارق.....)، جعلها تسيطر و تتحكم في أهم طرق النقل و التجارة العالمية التي تصل بين الغرب و الشرق، و قد ساعدها ذلك في تسويق منتوجاتها و في المقابل جلب حاجياتها المختلفة من الميرة و المادة الأولية للصناعة و البناء، إضافة إلى السلع الكمالية، و استغل المسلمون هذه الطرق أيضا لأغراض عسكرية في إطار الفتوحات الاسلامية، أو في الدّفاع عن مصالحها و أملاكها، ووفرت لها البحار أيضا مواردا إقتصادية هامة من سمك، و مواد أولية تدخل في صناعة الحليّ كالمرجان الذي كان بكثرة بمدينة سبتة و تنس و مرسى الخزر من بلاد المغرب، و اللؤلؤ الذي يعد بحر العرب أهم المصائد العالمية له.

كما ساهمت هذه الحركة البحرية في تعمير سواحل البلاد، بإنشاء المراسي التي شغلت الخلجان و الجزر و مصبات الأنهار، و قد ذكر الإدريسي (ق 6هـ / 12م) في كتابه " نزهة المشتاق" عددا كبيرا منها بسواحل المغرب و إفريقية، و حددّ أنواعها بين شتوية و صيفية و المسافات الفاصلة بينها، إضافة إلى ذكر الطرق البحرية الرابطة بينها و بين موانئ الأندلس و جنوب أوروبا، و المسالك البرية الواصلة بينها و بين المدن الداخلية من البلاد، و دفعت هذه الطرق المسلمين أيضا إلى بناء المدن المختلفة، أتخذت عواصما أو قواعدا عسكرية أو مراكزا تجارية (سوسة، الناصرية، أصيلا)، و كثيرا ما ألحقت بهذه المظاهر العمرانية دور صناعة السفن لتزويد الأسطول البحري الحربي و التجاري بما يحتاجه من المراكب و العتاد.

البحيرات :

البحيرات كثيرة ببلاد الاسلام، و هي ذات أهمية بالغة كونها تؤمن الغذاء، و تمتص اليد العاملة من خلال الثروة السمكية التي تتوفر عليها، إضافة إلى تأمين مواد البناء كالقصب، و استعمالات أخرى كالسقي، و نذكر من هذه البحيرات، " بحيرة الفيّوم " التي يكثر بها السمك، و " بحيرة نُسروه " فيما بين الإسكندرية و رشيد، و في طرف هذه الاخيرة جزيرة فيها قرية يعيش جميع أهلها من صيد السمك، بحيث تفوق عائداتها المالية عشرون ألف دينار مصرية حسب ما ذكره صاحب كتاب " أوضح المسالك في معرفة الممالك " .

التّضاريس:

الجبال :

تشمل مساحات كبيرة من الأراضي الإسلامية، و لها منافع و محاسن كثيرة من خلال ما توفره من مواد أوّلية، ساهمت في بعث العديد من الصّناعات و حرّكت نشاط البناء، و قد جاء ذكرها عند الجغرافيين العرب كإبن سعيد و البكري و الإدريسي، نذكر منها " معدن الذّهب" بخرسان و بمفاوز كثيرة بين الحبشة و النوبة و مصر، و" معدن الحديد" و القطران و الزفت بإقليم بجاية، و إشتهرت بونة و مجانة و أرزَاو (أرزيو) بالمغرب الأوسط بكثرة معدن الحديد، إضافة إلى معدن النّحاس و الفضّة بجبال كتامة، و الزئبق و الكبريت ببلاد الأندلس.

كما إشتهرت البلاد أيضا بكثرة مقالع الحجارة المختلفة أنواعها، و التي أستعملت في العمارة و في بعض الصّناعات، فقد عرفت خرسان و بلاد كتامة بحجارة اللازورد، و مجانة بمقالع حجارة الأرحاء، و بجبل أجليز بمراكش مقالع للحجارة.

الأنهار:

هي كثيرة و سنكتفي بذكر أشهرها و أعظمها بالبلاد الإسلامية، أوّلها " النّيل" و هو أطول أنهار المعمورة يأتي من الحبشة و يعبر السودان و مصر و يصبّ في البحر الرّومي، و إشتهرت بلاد الرّافدين " بنهر الفرات " و نهر " الدّجلة " ، الأوّل مصبّه من أرزن آخر بلاد الرّوم من جهة الشرق، و تغذي الفرات و تخرج منها عدّة أنهار، و إذا جاوز مجراها " نهر

كوثي " تنقسم إلى قسمين و يمر أحدهما و هو الجنوبي إلى الكوفة و يتجاوزها ليصبّ في البطائح، و يمّر الآخر و هو أعظمها و يعرف " بنهر سُورَا " بإزاء قصر إبن هبيرة و يتجاوز هذا القصر و يسير جنوبا إلى " مدينة بابل القديمة " ثمّ يواصل مجراه إلى مدينة النّيل ليتّصل بعدها بدجلة.

أمّا " نهر دجلة "، تخرج من أسفل حصن ذي القرنين، و يمر مجراها على عدّة مدن تاريخية ببلاد الرّافدين كالموصل و تكريت و سرّ من رأى و بغداد و المدائن و واسط، و يمتد مجراها إلى أن ينتهي عند عبّادان حيث يصبّ في بحر فاس، و على غرار الفرات تصبّ و تخرج منها عدّة أنهار تسقي القرى و البساتين، نذكر منها " نهر المرة " الذي يخرج من دجلة جهة الغرب فيسقي الأراضي غرب الدّجلة و شمالي البصرة، و " نهر مَعقل " الذي هو أجلّ أنهار البصرة و أعظمها، و سمي نسبة إلى معقل بن يسار المزني الذي حفره بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ض).

نذكر من أنهار الشام ، " نهر العوجاء " قرب مدينة الرّملة بفلسطين و مخرجه من تحت جبل الخليل و يجري من الشرق إلى الغرب و يصبّ في بحر الرّوم، إضافة إلى نهر " اليرموك " و " نهر حماة " ، و ببلاد المغرب يوجد " وادي درعة " الذي يخرج من جبل دَرْن و يمر على سجلماسة إلى درعة إلى البحر المحيط، و " وادي سبو " الذي يجري من جبل إفران و يمر على مدينة فاس و يصبّ في البحر المحيط، و هناك وادي أم الرّبيع أيضا، و ببلاد الأندلس " نهر إشبيلية " و مخرجه من جبل سقورة و تصبّ إليه عدّة أنهار و عليه عدد كبير من الضّياع و القرى و المدن الهامّة، كقرطبة و إشبيلية، و يصبّ في البحر المحيط عند موضع يعرف ببر المائدة.

لقد ساهمت وفرة الأنهار بالنهوض بعدّة قطاعات في البلاد الإسلامية و منها حركة التّعمير حيث شيّدت على جوانبها العديد من المدن، فقد شيدت بغداد على " نهر دجلة " بالعراق، و مدينة القاهرة على " نهر النّيل " بمصر، و القلعة على " نهر جراوة " بالمغرب الأوسط ، و فاس على " نهر سبو" بالمغرب الأقصى، و غرناطة على " نهر شَنيل " ببلاد الأندلس.

كما كان لها دور في تنشيط الحركة التجارية من خلال إستعمال مجاريها في النقل ، إضافة إلى تشجيعها قيام الكثير من الصّناعات و الحرف، فقد إنتشرت على ضفافها العديد من دور الصّباغة و المدابغ في ظلّ وفرة الأصواف و الجلود و المواد الأولية النباتية مثل النّيلة و الزّعفران المتوفران بكثرة بالشام و جنوب فارس و المغرب، إضافة إلى الطّواحين التي توزّعت على جانبيها حيث أحصت المصادر الجغرافية المئات منها على نهر فاس، و مطاحن تلمسان على نهر سَطفسيف (الصّفصاف)، و على " نهر خوّار مطاحن " مدينة الخضراء" و مطاحن " مدينة مليانة " و مطاحن " مدينة مستغانم " و مطاحن " مدينة وهران " و كلّها مدن بالمغرب الأوسط.

إضافة إلى الدور الزراعي و الصّناعي و التجاري للأنهار، سجّلت حضورها أيضا في المجال العسكري بإتخاذها خنادقا طبيعيّة للمدن لتدفع عنها العدو، و قد جاء في كتاب " المسالك و الممالك " للبكري في وصفه " لمدينة تهودا " بإقليم الزاب أنّها مدينة كثيرة الثمار و النخيل و الزرع ...، و بها نهر يصبّ في جوفيها من جبل أوراس، و إن كانت بينهم و بين ما يجاورهم حرب أرسلوا ماء النّهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه و امتنعوا من عدوّهم به.

السهول :

هي على أنواع، نذكر منها السهول الساحلية التي لها أمثلة بسواحل بلاد اليمن و بمنطقة الشام كسهول فلسطين التي تمتد إلى سوريا، إضافة إلى السهول الساحلية ببلاد المغرب حيث تمتد طولا على سواحل إفريقية و المغرب، و تمتاز بالضيق و التقطع بالجبال و بأنهار قصيرة الطول و جريانها غير منتظم لأن الأمطار بها موسمية، و من أمثلتها سهل تونس و سهل بونة و سهل الجزائر و سهل وهران و سهل الملوية.

أما النوع الثاني، تعرف بالسهول الدّاخلية التي تمثل بطون الأودية و تلك التي توجد بين السلاسل الجبلية، و يتوفر هذا النوع على إمكانيات زراعية كبيرة من خصوبة التربة و ثرائها بالمواد العضوية و المعدنية، و من أمثلتها سهول شمال العراق و سهول دلتا النيل و سهول

بلاد الشام (سهل العمق و سهل الغاب) و سهل البقاع في لبنان بين جبال لبنان الغربية و الشرقية.

جاء في الكتب الجغرافية وصف لبعض هذه السهول، كالسهول الممتدة على ضفاف النّيل حيث قال عنها البكري أنه: " ليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النّيل، و لا نهر يجني منه إلا جزء مما يجنى من النّيل...، تزرع بها أصناف مختلفة من المزروعات من النّخيل و الكرم و التين و اللّوز و الجوز و سائر الفواكه" ، و قال في وصف أرض السّواد ببلاد الرافدين أن :" طولها 125 فرسخا و عرضها 80 فرسخا"، و نذكر بعض سهول بلاد المغرب التي تظهر في وصف "مدينة خزرونة" من مدن سهل متيجة بالمغرب الأوسط قوله أنها :" على نهر كبير عليه الأرحاء و البساتين، و لها مزارع و مسارح و هي أكثر تلك النواحي كتّانا " و قوله في وصف أحد فحوص تلمسان : " و بين أرشقول على نهر تافنا و تلمسان فحص أزيدور طوله خمسة و عشرون ميلا، و قوله أنّ على ضفاف نهر السوس الأقصى، " يزرع قصب السّكر و الحناء و غير ذلك مثل ديار مصر".

لقد ساهمت وفرة مصادر المياه و الأراضي الخصبة و تنوع المناخ في وفرة المحاصيل الزراعية و تنوعها، التي إنعكست إجابيا على الحياة الإجتماعية و الإقتصادية، و من مظاهر ذلك تأمين الغذاء و رخاء الأسعار و توفير المادة الأولية لعدد من الصناعات، كالقطن و الكتّان و الحرير، و قد أشار الجغرافيون العرب إلى هذه المحاسن في أكثر من موضع، و من أمثلة ذلك ماجاء في وصف "مدينة قابس" من قبل البكري قوله: " و مدينة قابس مدينة جليلة...، و بها شجر التوت الكثير و يقوم من الشجرة الواحدة منها الحرير مالا يقوم من خمس شجرات من غيرها، و حريرها أطيب الحرير و أرقه "، و قوله في وصف مدينة سفاقس : " مدينة في وسط غابة زيتون، و من زيتها يمتار أهل مصر و أهل المغرب و صقلية و الرّوم "، و قوله في وصف " مدينة باجة " التي تعرف بكثرة الأنهار أنها:" تردها كلّ يوم من الدّواب و الإبل العدد العظيم الألاف و الأكثر لانتقال الميرة فلا يؤثر ذلك في سعرها (حمل بعير بدرهمين) لكثرة طعامهم "، و قوله في وصف "مدينة توزر" من بلاد قسطيلية على وادي

الحمال أنّ بها: " سواد عظيم من النخل و هي أكثر بلاد إفريقية تمرا، و يخرج منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرا و أزيد... "، و كلها مدن ببلاد إفريقية، و قوله في وصف " مدينة الغدير" بين طبنة و سوق حمزة من بلاد المغرب الأوسط أن بها: " جامع و أسواق عامرة و فواكه كثيرة و هي رخيصة الطعام و اللّحم و جميع الثمار، قنطار عنب فيها بدرهم".

لما زادت هذه الخيرات عن الحاجة، سوقت إلى أقطار كثيرة في إطار المبادلات التجارية، وفي هذا الصدد ذكر إبن سعيد في "كتاب الجغرافية" أن التجار كانوا يجلبون إلى بلاد الهند زيت الزيتون و القمح من العراق و إلى بلاد السّند التمر و الزبيب من بلاد اليمن و العراق، و يجلبون من الحبشة كثيرا من الميرة التي يزرعونها على ضفاف النّيل.

المصادر و المراجع :

- إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1992.
- المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط . 03 ، مكتبة مدبولي القاهرة 1991.
- البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ،د.ت.
- الإدريسي، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل ليدن 1864.
- الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة و الوراقة ، الرباط 1972.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين)، **معجم البلدان**، مج. 1 –5. دار صادر ، بيروت لبنان 1977.
- إبن سباهي زادة ، **أوضح المسالك إلى معرفة البلدان و الممالك**، تحقيق المهدي عبد الرّواضية، ط . 1 ، دار الغرب الإسلامي 2006.
- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) ، **وصف إفريقيا** ، ترجمة محمّد حجّي و محمّد الأخضر، ط . 02 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.
- فضيخ الغريري (عبد العبّاس)، **جغرافية الوطن العربي**، ط .1 ، دار صفاء للنشر و التوزيع، الأردن 1999.
- الزوكة (محمّد خميس)، **جغرافية العالم الإسلامي** ، دار المعرفة الجامعية مصر 2000.

- منصور (عبد الفتاح) ، **محاضرات في جغرافية العالم الإسلامي** مصر 1975.

الملامح العامة للحضارة الإسلامية

تعريف الحضارة :

هي مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم، ومعارف وفنون و ما إلى ذلك و الترقي بها في مدارج الحياة و مسالكها حتى تصل إلى الغاية التي تواتيها بها أحوالها و إمكانياتها المختلفة.

عوامل تشكل الحضارة الإسلامية وعناصرها:

إن الباحث في جغرافية وتاريخ العالم الإسلامي، يقف على توفرها على عوامل تكوين الحضارة من عامل جغرافي و إقتصادي و ثقافي و ديني...الخ، كما أنها إستوعبت ايضا عناصر الحضارة المختلفة من موارد إقتصادية و تقاليد خلقية، و نظم سياسية و علوم و فنون، و سنحاول في هذا المقام الوقوف عند بعضها.

مظاهر الحضارة الإسلامية:

العمارة والعمران:

يرتبط تاريخ إهتمام المسلمين بالبناء بهجرة الرسول محمد (ص) إلى المدينة المنورة، فقد عرفت على عهده تطورا وتوسعا عمرانيا لم تشهده من قبل، حيث لم شمل القبائل العربية وأسكنها في مكان واحد، وأقطع لكل قبيلة خطة خاصة بها، وأنشأ بموضع المناخة منها سوقا يبتعون بها، و شيد بها جامعا للصلاة و للنظر في أحوال المسلمين و إنشغالاتهم المختلفة، و قد حرص النبي (ص) على تعزيز تحصيناتها بحفر خندق لها من الناحية الغربية و كان ذلك في غزوة الأحزاب.

كما شيّد المسلمون على عهد الخلافة الراشدة مدنا عربية جديدة جعلوا منها قواعدا عسكرية ومراكزا إدارية للمناطق المفتوحة، وجاء تخطيطها العام على الأسس التي وضعها الرسول

(ص) بالمدينة المنورة، وما لبثت هذه المدن التي سميت بالأمصار أن أصبحت ممثلة للحضارة والثقافة العربية والإسلامية، ونعني بها البصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر على عهد الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ض).

تواصلت حركة بناء المدن الإسلامية على عهد الخلافة الأموية ومن بعدها الخلافة العباسية، وذلك بإنشاء مدن كثيرة ومتنوعة الوظيفة، كمدينة القيروان ببلاد المغرب وواسط ببلاد الرافدين، وببلاد الأندلس شيد الأمير عبد الرحمن الداخل مدينة قرطبة واتخذ منها عاصمة له ولعقبه من بعده، و قد حرص على جعلها صورة عن دمشق، و تجلى ذلك في النواحي المعمارية المختلفة و لا سيما بجامع قرطبة.

يضاف إلى هذا الإنجاز العمراني مدينة الزهراء التي شيدها الأمير عبد الرحمان النّاصر سنة 325هـ/936م، و كانت محصنة بسورين و تضم مسجدا جامعا و عددا من القصور، و بغربها شيّد الحاجب المنصور بن أبي عامر مدينة الزاهرة، و بها مسجد جامع و قصر ضخم لإقامته و دواوين لجميع إدارات الدولة الرسمية و مساكنا لحاشيته، و تم ذلك سنة 370 هـ/980م.

و شيد العباسيون ببلاد الرافدين عددا من المدن أهمها مدينة بغداد التي بناها الخليفة جعفر المنصور لتكون حاضرة دولته و معقل جنده و مأمن أهله و خاصته، و قد وفق في إختيار موقعها الذي إجتمعت فيه محاسن إنشاء المدن، ما جعل المدينة تعرف إزدهارا كبيرا و تظل عاصمة بني العباس لخمسة قرون من الزمن، بحيث شرع في بنائها سنة 145هـ، و جاء تخطيطها دائريا على هيئة المدن الفارسية، و أحاطها بسور به أربعة أبواب تفضي إلى ساحة مركزية حيث الجامع الكبير الذي يحمل إسمه و بجانبه قصر الخلافة المعروف بقصر الذهب، و تليها أهمية مدينة سامراء التي شيدها الخليفة المعتصم سنة 221هـ /836 م، و مدينة الجعفرية من عمل الخليفة المتوكل سنة 245هـ/859م.

كما كان للمسلمين مدنا كثيرة بمشرق البلاد ومغربها، لها أثر بليغ في السجل الحضاري الإسلامي، ومن أمثلتها مدينة القطائع الطلونية سنة 256هـ/870م، ومدينة القاهرة الفاطمية بمصر سنة 358هـ/969م، و مدينة رقادة الأغلبية بإفريقية سنة 264هـ / 878م، و مدينة الناصرية الحمّادية بالمغرب الأوسط، و مدينة فاس البيضاء المرينية بالمغرب الأقصى.

تتجلّى المظاهر العمرانية الإسلامية أيضا في الطرق التجارية، فقد كان لإهتمام حكام المسلمين بالتجارة أثر واضح في العناية بها و حراستها و تأمينها، فحفروا الأبار، و أقاموا المنائر في المرافئ و الثغور، و اهتموا بإنشاء الأساطيل لحماية سواحلهم من المغيرين، و قد جاء ذكر لهذه الطرق بنوعيها البرّية و البحرية في المصادر الجغرافية العربية.

أما المنشآت العمائرية فهي الأخرى متنوعة، نذكر منها القصور التي كثرت بالبلاد الإسلامية و من أمثلتها قصور الإستراحة الأموية ببادية الشام، و ضمت قرطبة إضافة إلى قصر الخلافة عددا من القصور و الدور لإقامة الأمراء و أبنائهم و حاشيتهم، كالقصر الكامل و الزاهر و المعشوق و الرشيق و البديع ، و دار الأولاد التي كانت مخصصة لرعاية أولاد الخلفاء و دار الجند و دار الوزراء...الخ.

كما ضّمت مدينة بغداد العّباسية عدّة قصور، أهمها قصر القبة الخضراء، إضافة إلى قصر الخلد وقصر الرصافة الذي كان مقرّ إقامة الأمير الهادي ولي عهد الخليفة جعفر المنصور، وقصر زبيدة وغيرها من القصور التي لا يسعنا ذكرها في هذا المقام.

الفنون الزخرفية:

الخط العربي:

عرف المسلمون نوعان من الخط، يعرف الأول بالخط الكوفي الذي أستعمل أيام الخلفاء الرّاشدين في كتابة القرآن الكريم ، و حينها تفرع الخط المذكور إلى أربعة أقلام، و زاد عدد

الأقلام لتصبح في أوائل العصر العباسي 12 قلما، و في أيام المأمون تنافس الكتّاب في تجويد الخط فحدثت أقلام أخرى حتى زادت على عشرين شكلا.

أما خط النسخ فقد كان شائعا بين الناس لغير المخطوطات الرسمية، حتى نبغ إبن مقلة فأدخل في الخط تحسينا جعله على ما هو عليه الآن، و أدخله في كتابة الدّواوين، ثم تلاه في ذلك علي بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب و كلاهما على العهد العباسي.

الزخرفة:

إن عزوف المسلمين عن الصور المجسمة و التماثيل، جعلهم يتجهون بميولهم الفنية نحو الزخرفة التي برعوا فيها، بحيث أجادوا زخرفة الزجاج والنسيج و الكتب و المباني و غيرها بالمناظر الطبيعية و الأشكال الهندسية و النباتية و الكتابية، هذه الأخيرة التي استعمل الخط الكوفي في تشكيلها سواء في الزخرفة الخطّية أو في زخرفة المصنوعات و المباني المختلفة، من قصور و مساجد و مدارس و مصاحف و أقمشة حريرية و أواني زخرفية و مصابيح نحاسية، و قد انتقل هذا التأثير الفني إلى العمارة و المصنوعات الأروبية بفضل البضائع المزخرفة الواردة إليها من البلاد الإسلامية في إطار المبادلات التجارية.

الاقتصاد:

الزراعة:

كانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تضم كثيرا من الأقاليم التي تعد من أخصب بقاع العالم، كمصر و الشام و العراق و خرسان و ما وراء النّهر و سجستان و بعض مناطق شمال إفريقيا، و قد ساءت الأحوال الاقتصادية في هذه الأقاليم قبل الإسلام بسبب الحروب التي ترتبت عنها قلة اليد العاملة و اهمال شؤون الرّي و كثرة الضرائب.

لما فتح العرب هذه البلاد إتجهوا إلى تحسين أحوالها الاقتصادية، ويعكس مظهر هذا الإتجاه بالإضافة إلى كثرة الأيدي العاملة، إصلاح وسائل الرّي وتنظيمها، فبنوا السدود و شقوا القنوات

و الأنهار و أقاموا عليها الجسور و القناطر و استخدموا عليها الكثير من العمال، و قد استحدث العباسيون لأجل ذلك ديونا يعرف ب " ديون الماء ".

كما إعتنوا بتسميد الأرض، و عرفوا تلقيح و تطعيم الأشجار، و استخرجوا أصنافا جديدة منها، كلها أمور حسنت من الإنتاج كمّا و نوعا، و نذكر من هذه المحاصيل الحبوب كالحنطة التي كانت تزرع في كافة البلاد التي يكون فيها الماء موفورا، و الذرة التي تزرع في الأجزاء الجافة لجنوب جزيرة العرب و بلاد النوبة و جنوبي مصر، و الأرز الذي كان يزرع حيث يكثر الماء و تتشكل المستنقعات، إضافة إلى الأشجار المثمرة كالتمر الذي تعتبر العراق و كرمان و شمال إفريقية من أهم مراكز إنتاجه بالعالم الإسلامي، و كان الزيتون يزرع بالشام و شمال إفريقيا اللتين كانتا تمدان المملكة الإسلامية كلّها بالزيت.

إشتهرت الأقاليم الإسلامية أيضا بإنتاج المحاصيل الزراعية الصناعية من النيلة التي كانت تزرع بصعيد مصر والواحات وفلسطين وكرمان وكابل، والزعفران ببلاد الشام وجنوبي فارس والمغرب، حيث تعتبر مدينة طليطلة أهم مراكز إنتاجه، والكتان الذي تكثر زراعته بمصر، والقطن الذي كان يزرع بفارس وفيما بين النهرين وبلاد ما وراء النّهر وشمال إفريقية والأندلس.

عرفت البلاد الإسلامية أيضا بوفرة الثروة الحيوانية وتنوعها، حيث كانت تستعمل في الحروب والنقل، وتؤمن لها الغذاء من لحوم وألبان، والمواد الأولية لبعض الصناعات من أصواف وأوبار وجلود.

الصّناعة:

إن موقع البلاد الإسلامية من الكرة الأرضية وامتدادها الكبير، نتج عنه تنوع مناخها ومظاهرها الجغرافية وتركيبتها الجيولوجية، عوامل أدت إلى وفرة المواد الأولية الصناعية النباتية والحيوانية والمعدنية، ما ساعد على قيام عدّة صناعات مثل صناعة النّسيج، وصناعة العطور، وصناعة الحلي والصناعات الخشبية، و صناعة الحدادة ...الخ.

التجارة:

نتج عن اتساع الفتوحات الإسلامية، ارتقاء الزراعة و الصناعة التي نشطت التجارة، حيث أصبح للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلاد العالم، و امتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الفليبين و الصين و إلى المغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة، و إلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا و الحبشة و سواحل إفريقيا، و إلى الشمال حتى إلى بلاد الرّوس ، و قد ساعدت هذه الطرق على إزدهار العديد من المدن الإسلامية، إضافة إلى تشكل العديد من المدن البرية و البحرية، و من أهم هذه المدن بالمشرق الإسلامي بغداد و البصرة و الكوفة و القاهرة و الإسكندرية و أصفهان، و مرافئ الشام كطرابلس و صيدا و بيروت، و بالمغرب مدن كثيرة مثل القيروان و تونس و المهدية و القلعة و بجاية و تلمسان و سدراته و فاس و سبتة و أصيلا و مراكش.

الحياة الفكرية:

عرفت الحياة الفكرية بالبلاد الإسلامية نهضة كبيرة و ذلك لتوفر الجو المناسب، من إهتمام الحكام و يتجلى ذلك في حرصهم على مجالسة و استقطاب العلماء و توفير متطلباتهم، إضافة إلى بناء المدارس التي كثرت بالبلاد بمشرقها و مغربها خاصة بدمشق و حلب بالشام، و بالقاهرة مصر، و بتونس و تلمسان و فاس بإفريقية و المغرب.

كما حرص أولي الأمر على تشجيع حركة التأليف و الترجمة، بحيث ترجمت الكثير من الكتب إلى العربية، و كان للعناصر الأعجمية المقربة من البلاط دورا في ذلك كالعنصر الفارسي في العهد العباسي و عنصر الصقالبة خلال حكم الأغالبة ببلاد المغرب، و قد نتج عن ذلك إنتقال بعض ثقافات الشعوب المتحضرة إلى بلاد المسلمين نذكر منها الثقافة اليونانية التي خصّص الخليفة هارون الرشيد و ابنه المأمون الأموال الطائلة لترجمة كتبها إلى العربية لتصبح من أهم الأسس في كثير من العلوم عند المسلمين، و اهتم الحكام أيضا بشراء الكتب و انشاء المكتبات العامة و الخاصة، و من أمثلتها مكتبة المعصومة بتاهرت الرستمية التي احتوت على نحو

300 مجلد إشتراها الإمام أفلح من بغداد، و مكتبة بيت الحكمة برقادة الأغلبية، و بمدينة قرطبة ببلاد الأندلس إهتم الخليفة الأموي المستنصر بإنشاء المكتبات و إقتناء الكتب.

قائمة المصادر والمراجع :

- شلبي (أبو زيد). **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي**. مكتبة وهبة. القاهرة. مصر. 2012.
- بوطارن (مبارك). **تطور العمران الإسلامي مدينتا القيروان وسجلماسة نموذجا**. دكتورراه علوم في الاثار الإسلامية. معهد الاثار. جامعة الجزائر. 2005 – 2006.
- قصي (الحسين). **موسوعة الحضارة الإسلامية**. ط. 01. دار مكتبة الهلال. بيروت – لبنان.2005.
- حمدي (عبد المنعم). **تاريخ وحضارة المغرب والاندلس**. دار المعرفة الجامعية. مصر. 2005.
- عبد الرزاق احمد (احمد). **العمارة العباسية في العصرين العباسي والفاطمي**. ط. 01. دار القاهرة. مصر. 2002.
- مارسي (وليم و جورج). **المعالم الاثرية العربية لمدينة تلمسان**. تقديم وترجمة. محمد بلعيد واخرون. ط. 01. الاصالة للنشر والتوزيع. الجزائر. 2011.
- Golvin (lucien) ; **la madrasa medievale** , Edsud, paris, 1995.
- Berges ; **tlemcen ancienne capitale du royaume de se nom**, paris, 1859.

العمران ودلالته

تعريف العمران:

جاء في كتاب مقدّمة ابن خلدون تعريفًا للعمران يقول فيه هو: " التّساكن والتّنازل في مصر أو حلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبنيه، ومن هذا العمران ما يكون بدويا، وهو الذي يكون في الضواحي والجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا، وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن للاعتصام بها والتحصّن بجدرانها ".

تعريف العمارة (البنيان):

هي من أوّل صنائع العمران الحضري وأقدمها وضع المختصّون العديد من التعاريف لها ومن ضمنها نذكر: << العمارة هي الفضاء المحصور بين الجدران >>، وفي تعريف آخر هي: << أسلوب توجيه الحركة داخل الفراغات المعمارية >>، والعمارة كما جاء ذكرها في المصادر العربية التي اهتمت بدراستها على أنّها على قدر عالٍ من الأهمية باعتبارها ركن من أركان الملك يضاف إلى تنصيب الوزير وإقامة الشريعة وإعداد الجند وحفظ المال.

دلالات العمران:

للعمران الإسلامي عدّة دلالات يمكن الوقوف عليها بناءً على الموروث المادي الذي بلغنا على عدّة صور، نذكر منها الدلالة الاقتصادية.

إنّ مظاهر العمارة والعمران بالمدن والأقاليم الإسلامية في الغالب مرآة عاكسة للواقع الاقتصادي الذي كانت عليه الدول الإسلامية، ويتجلّى ذلك إمّا في حجم العمران كاتّساع المدن مثل مدينة القيروان على عهد الأغالبة والفاطميين، وبعدد الموانئ والطرق التي تربط المدن ببعضها، ما يعطينا صورة على الحركة التجارية التي كانت بالمدن الإسلامية، وهذا ما يضمن انتعاش خزينة الدّولة التي يخصّص جزء هام منها في عملية التّعمير بأشغاله المختلفة، وفي

هذا الصّدد جاء في الكتب الجغرافية كصورة الأرض لابن حوقل (4هـ/ 10م)، والمسالك والممالك للبكري (5هـ/11م)، ونزهة المشتق للإدريسي (6هـ/ 12م)، ذكر لأهمّ الموانئ والطرق البرية والمائية ببلاد المغرب والتي ساهمت في ازدهار الكثير من المدن خاصة بالحواضر الكبرى مثل تلمسان وقلعة بني حمّاد وبجاية وفاس ومرّاكش.

إنّ لنوعية المباني المعمارية دور في تقييم وتحديد نسبة ونوعية اقتصادات المدن الإسلامية، ومن أمثلتها الأسواق والحمامات التي يجتمع ذكرها في الغالب عند الكتّاب العرب من مؤرخيين وجغرافيين ورحالة عند وصفهم للمدن، فكثرتها مؤشر على الإقبال على هذه المدن ما يخلق حركة تجارية نشيطة ترافقها حركة معمارية سريعة وكبيرة، كما تعكس نوعية المباني والمواد المستعملة في بنائها في الغالب الرّفاهية التي كانت بهذه المدن بفضل مستوى الرّاحة المادية التي كانت عليها.

للعمران الإسلامي دلالة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها تتمثل في الدلالة الأمنية، فنمو المدينة من عدمه مرتبط أيضا بالجانب الأمني، فكثيرًا ما أدّت الحروب إلى الحدّ من توسّعها أو خرابها ومن أهمّ أمثلتها بالمغرب الأوسط مدينة تلمسان التي رهن الصّراع المريني الزياني مصيرها في أكثر من مرّة، أو من خلال توجّه الدّولة إلى العمارة الدفاعية على حساب مظاهر معمارية أخرى، ومن أمثلتها بالمدن الإسلامية حرصُ صلاح الدين الأيوبي على تعزيز الدّفاعات المعمارية لمدينة القاهرة على حساب العمائر الأخرى وذلك لانشغاله بالحروب ضدّ الصليبيين.

لدينا أيضا أمثلة كثيرة عن تأثير الحروب في توسع العمارة الحربية بالبلاد الإسلامية، نذكر منها المدن العسكرية التي شيّدها الموحدون خاصة بالمغرب الأقصى للدفاع عن ممتلكاتهم ببلاد الأندلس، والحصون التي شيّدها الزّيانيون بالناحية الشرقية للدولة أثناء حروبهم مع بني حفص.

للعمران أيضا دلالة دينية تتجسد في عدّة مظاهر معمارية بالمدن الإسلامية وتعكس بوضوح توجيه الدين الإسلامي للعمارة والعمران من حيث التخطيط وتوظيف العناصر المعمارية المشكلة له، ومن صوره بساطة المساكن وتراصها التي تدلّ على المساواة والرابطة الاجتماعية الوثيقة بين أفراد المجتمع الإسلامي، إضافة إلى اعتماد الشوارع الخاصة وتوجيه المساكن إلى الداخل وتناكب الأبواب واستعمال المداخل المنكسرة وأنواع الشبابيك المختلفة لتوفير الخصوصية التي تحفظ كرامة الأشخاص دون إغفال وظيفتها الإنشائية في العمارة.

منظور الإسلام إلى العمران

ما يميّز العمارة والعمران الإسلامي عن نظيره عند الأمم الأخرى ارتباطه الوثيق بالنصوص الشرعية المستمدة من الكتاب والسنّة، حيث نظمت الجانب الإداري والاجتماعي والمادي لهذا المجال بشكل يسمح بأداء الواجبات الدينية التي لأجلها وُجد، ويضمن الحقوق المادية والمعنوية للمسلمين.

يتوجب على المسلمين لتحقيق هذه الغاية احترام عدد من الضوابط في تعمير الأرض، والتي تدعوا إلى البعد عن الممارسات الإعمارية الفاسدة وفي المقابل الإقبال على غيرها من الممارسات الصالحة، ونذكر من صور الممارسات الإعمارية الفاسدة بعض الأمثلة كأن نُعمِّر أرضًا أخذت غصبا من أهلها ما يعطّل شرط الطهارة المعنوية للأرض المخصصة للبناء، وفي هذا الصدد وقفنا على حرص الحكام المسلمين في إنشاء بناياتهم ومدنهم على دفع المقابل المادي للأراضي المخصصة لها، ومن نماذج الأعمال المعمارية الفاسدة أيضا إقامة مباني العبث والفجور كالحانات والتطاول في البناء قصد المباهاة وإظهار القوة ولم تبنَ للحاجة، وفي ذلك مضيعة للوقت وإتعاب للأبدان.

نجد في المقابل أن الدين الإسلامي يدعوا إلى البساطة في البناء التي هي مظهر من مظاهر الزهد والترفّع عن البذخ، فقيمة المبنى لا تكمن في حاله ومظهره الشكلي أو المادي ولكن في

جوهره ووظيفته ونفعه، ومن أمثلتها المعمارية المساكن التي جاءت بسيطة في مظهرها ونافعة في وظيفتها من خلال ما تقدمه من مهام نفعية هامّة، كونها المجال الذي يكفل كرامة الإنسان من خلال حفظ عرضه ونفسه وماله، ومن أشكال الأعمال المعمارية الصالحة التي يدعوا إليها الإسلام أيضًا، ما يحقّق المنفعة العامّة من البناء والتي تجسّدت في المدينة الإسلامية في عدّة مظاهر، كبناء المساجد والمدارس للعبادة والتّعليم وبناء المستشفيات للتّداوي، وبناء الحمامات التي تحقّق الطهارة الروحية والبدنية التي هي أساس مُمارسة العبادات، وتشييد الأسبلة والعيون التي يرتوي منها خلق الله من العباد والدّواب، وقد سجّلت هذه البنايات وجودها بنسبة كبيرة بالمدينة الإسلامية، ومن أهمّ أسباب ذلك نظام الوقف الذي دعت إليه الشريعة الإسلامية وهو سبيل من سُبل الخيرات التي يتنافس فيها المتنافسون.

المصادر والمراجع:

- البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
- الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل ليدن، 1864.
- ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، **مقدمة ابن خلدون**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- الفاسي (ابن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- عثمان (عبد الستّار)، **المدينة الإسلامية**، عالم المعرفة، الكويت، 1988.
- وزيري (يحيي)، **العمران والبنيان في منظور الإسلام**، الطبعة الأولى، روافد، الكويت، 2008.

أهمّ مصادر العمران الكتابية

أنواع المصادر الكتابية:

المصادر التّاريخيّة:

هي تلك المؤلّفات التي تهتم بالتأريخ للبلاد الإسلامية بصفة عامة أو يقتصر ذلك على جزء منها خلال فترات مختلفة أو فتره محدّدة دون غيرها، وذلك بذكر الممالك والدول وامتدادها الجغرافي وقبائلها ونسبها وخلفائها وأئمتها وأمرائها، والحديث عن سيرهم وما رافق فترات حكمهم من أحداث سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية وأعمال تشييد وبناء للمدن والعمائر المختلفة.

تنقسم كتب التاريخ الى كتب التاريخ العام مثل كتاب تاريخ الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (ت: 257هـ)، وكتاب العبر لعبد الرحمن ابن خلدون (ت: 808هـ)، وكتب التاريخ السلطانية مثل كتاب بغية الروّاد في ذكر ملوك بني عبد الواد لأبي زكرياء يحيى ابن خلدون، والمسند الصّحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لمحمد ابن مرزوق التلمساني (ت: 781هـ)، ونُظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيّان لمحمد ابن عبد الله التنسي (ت: 899هـ).

المصادر الجغرافية:

تهتم بالمظاهر الجغرافية للممالك الإسلامية وذلك بذكر جبالها وبحارها وأنهارها وثرواتها المعدنية وحيوانها ونباتها، إضافة إلى مناخها وخصائص شعوبها وأخلاقهم ومذاهبهم وعاداتهم، كما تتعرض أحيانا إلى الأحداث السياسية والأوضاع الأمنية والاقتصادية التي تشهدها هذه الممالك وأقاليمها ومدنها من خلال ذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلاتها، وتقوم أيضا بتحديد المسالك الرّابطة بين هذه الممالك والمدن والقرى والمراسي والمسافات الفاصلة بينها، دون إهمال تقديم أوصاف للمدن والمعالم المعمارية القائمة بها، ومن أمثلة هذه الكتب نذكر كتاب صورة الأرض لابي القاسم ابن حوقل النصيبي (ت: 4هـ /10م)، والمسالك والممالك لابن

خرداذبة والمسالك والممالك لابي عبيد الله البكري(ت: 487هـ)، ونزهة المشتاق في اختراق الأفاق للشريف الإدريسي (ت: 6هـ/ 12م)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت: 626هـ)، وكتاب وصف إفريقيا لحسن الوزّان الفاسي (ت: 957هـ).

كتب الرحالة:

هي عبارة عن مذكرات توثق ليوميات شخصيات قامت برحلات دينية أو علمية أو تجارية، برية أو بحرية يقوم أصحابها خلالها بذكر الطرقات التي سلكوها لبلوغ مقاصدهم، يتعرضون فيها إلى ذكر معلومات وأوصاف للمواضع والمدن التي حلوا بها أو شاهدوها أو سمعوا عنها،وأحيانا يبدي الرحالة اهتمامهم أيضا بالنشاط الاقتصادي لهذه المناطق من زراعة و صناعة و تجارة وبتخصيص جوانب من رحلاتهم للحياة السياسية والعسكرية والفكرية التي ميّزت الممالك والمدن التي حلّوا بها من خلال ذكر بناياتها الدينية والعلمية كالمساجد والمدارس والزوايا وإرفاق هذه المظاهر الحضارية بالترجمة للإعلام من الحكّام والقضاة ورجال الدين من المشايخ والفقهاء إضافة إلى الأدباء والشعراء الذين لهم علاقه بما سبق ذكره، ومن أمثلتها نذكر تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لأبي عبد الله ابن محمد اللاواتي (ابن بطوطة)، ورحلة التجاني لابي محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجاني (ت. بعد 717هـ)، والرحلة المغربية لمحمد العبدري البلنسي (ت. نحو725هـ).

كتب فقه العمارة الإسلامية:

تتمثل في تلك الكتب المتعلقة بأحكام البناء انطلاقا من أحكام فقهية مستمدة من الكتاب والسنّة والعرف والتي من مقاصدها جلب المنفعة ودفع الضرر، والمتصفح لهذا النوع من المصادر يتضح له جليا تأثير وتوجيه الدين الإسلامي للعمارة والعمران سواءا من ناحية انماء العمران ومن أشكاله أحياء الأراضي الموات بالزراعة وجلب الماء أو بالتحجير أو من خلال توجيه العمارة من حيث التخطيط واستعمال العناصر المعمارية وأساليب البناء، ومن أمثلة هذه الكتب كتاب الحيطان للشيخ المرجي الثقفي (ت: 4هـ/ 10م)، وكتاب أصول الأرضين للشيخ

أبي العباس أحمد الفرسطائي النّفوسي عاش ما بين (420هـ – 504هـ)، و كتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي (ت: 734هـ)، و كتاب المعيار المعرب لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت: 914م).

يمكن الاستعانة في دراسة العمارة والعمران الإسلامي أيضا بقائمة إضافية من المصادر الكتابية مثل كتب الفهارس وكتب التراجم والأنساب، هذه الأخيرة التي تهتم بسير الأعلام من الحكام والعلماء المسلمين وتكون مرفقة بقائمة متنوعة من المنشآت المعمارية ككتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم، وممّا جاء فيه من الأعمال المعمارية ذكر لعدد من المدارس النظامية بتلمسان وهي مدرسة أولاد الإمام والمدرسة اليعقوبية والمدرسة التاشفينية.

أهمية المصادر الكتابية في دراسة العمارة والعمران:

تساعد على معرفة الامتداد الجغرافي للدول والأقاليم والمدن المشكلة لها، فمثلا المغرب الإسلامي في مطلع القرن 10هـ/16م كان يضم أربعة ممالك وهي مراكش وفاس وتونس وتلمسان هذه الأخيرة كانت تتشكل من ثلاثة أقاليم وهي الجبال وتنس والجزائر، ونستطيع من خلالها أيضا تحديد المدن التي كانت تابعة لكل إقليم مثل إقليم الزّاب من مملكة تونس الحفصية كان يظم خمسة مدن وهي بسكرة والبرج ونفطة وتلكة ودوسن.

تساعد أيضا على معرفة أسماء المدن وأصل مسمياتها مثل مدينة الفسطاط بمصر التي سميت نسبة إلى الفسطاط الذي ضربه عمرو بن العاص (ض) عند محاصرته الإسكندرية سنة 21 هـ ، وأطلق الحجاج على مدينته واسط لأن موضعها يتوسط الجبل والمصرين البصرة والكوفة، ومدينة تاهرت بالمغرب الأوسط التي عرفت بهذا الاسم لتربيع موضعها، ومدينة قرطبة بالأندلس التي تعني بلسان العجم القلوب المختلفة.

معرفة مواقع المدن من خلال الإشارة إلى مواضع إنشائها بالنسبة إلى بعضها البعض والطرق الواصلة بينها والمسافات الفاصلة بينها، مثل مدينة مراكش التي شيّدت شمال آغمات

على بعد إثني عشر ميلا منها بداخل المغرب، ومدينة الزهراء بالأندلس التي شغلت موضعا غربي قرطبة على بعد خمسة أيام منها.

معرفة أنواع المدن الإسلامية التي صنفتها المصادر الكتابية إلى أنواع وذلك حسب مواقعها الجغرافية مثل المدن البحرية نذكر منها مدينة طرابلس والمهدية وجزائر بني مزغنى، والمدن الجبلية مثل أشير ، والمدن السهلية كمدينة فاجنة، والمدن الصحراوية من ضمنها مدينة القيروان ومدينة تامغلت.

كما تمكننا من معرفه أنواع المدن من حيث وظيفتها مثل مدن الخلافة كسجلماسة عاصمة بني مدرار، وتاهرت الرستمية ورقادة الأغلبية المرينية والمهدية وصبرة المنصورية الفاطمية والقلعة والناصرية الحمادية ومراكش المرابطية الموحدية وتونس الحفصية وتلمسان الزيانية إضافة إلى ذكرها للمدن العسكرية والاقتصادية والدينية.

التأريخ للبنايات المعمارية والمدن وذلك من خلال المعلومات التاريخية التي تحملها النصوص الكتابية ومن أمثلتها قول البكري في وصفه لمدينة القصر القديم << أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة أربع وثمانين وماية >>، وقول ابن حوقل في وصفه للمهدية <<مدينة استحدثها المهدي القائم بأمر المغرب وسماها بهذا الاسم...، وتحول إليها من رقادة القيروان سنة ثمان وثلاثمائة >> وقول ابن عذارى المراكشي عند ذكره لصبرة المنصورية: << في سنة 336 من الهجرة أمر المنصور أبو الطاهر ببناء صبرة واختطها وسمّاها المنصورة >>، وقول الحميري عن بناء مدينة المرية بالأندلس << مدينة محدثة أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة >>.

تعرّفنا بالإنجازات المعمارية والعمرانية للحكام المسلمين خلال عصور مختلفة أو فترة معينة من التاريخ الإسلامي، فقد جاء في كتاب "فتوح مصر والمغرب" لابن عبد الحكم (ت: 257هـ/ 871م) ذكر للمدن المبكرة التي شيّدها المسلمون ببلاد الرافدين ومصر والمغرب على عهد

الخلافة الراشدة والخلافة الأموية كمدينة البصرة والكوفة والفسطاط والجيزة وقيروان معاوية بن حديج وقيروان عقبة ومدينة أبي المهاجر الدينار وقصور حسّان بن النعمان رضوان الله عليهم. ابن عذارى المراكشي هو الآخر ركز في كتابه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" على إرفاق الحكام بأعمالهم كإنشاء مدينة تاهرت الرستمية وفاس الإدريسية والمحمدية (المسيلة) وصبرة المنصورية الفاطمية وأشير الزيرية، وابن أبي زرع (ت: 741هـ) أيضا أشار في كتابه "الأنيس المطرب" إلى أعمال حكام المغرب الإسلامي خاصة على عهد المصامدة والمرينيين بعد أن ذكر سيرهم وأهم الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية التي طبعت فترة حكمهم، نذكر منها أعمال الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي الذي عرف باهتمامه بحركة التعمير بإفريقية والمغرب والأندلس حيث شيّد بها المساجد والمدارس والمارستانات والصوامع والقناطر والجباب للماء، إضافة إلى بناء قصبة إشبيلية وقصبة مراكش ومدينة رباط الفتح، كما نقل إلينا محمد بن عبد الله التنسي (ت: 899هـ/ 1494م) في كتابه << نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان >> الأعمال المعمارية لسلاطين بني زيان بالمغرب الأوسط كإنجازات السلطان أبو حمو موسى وابنه السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن، وأسهب ابن مرزوق (ت: 781هـ/ 1379م) في تعداد أعمال السلطان المريني أبي الحسن في كتابه "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن"، ومن أمثلة الإنجازات المعمارية في كتب الرّحالة ما جاء به ابن الحاج النميري (ت: بعد 774هـ) في رحلته الموسومة بعنوان << فيض العُباب >> حيث ذكر الأعمال المعمارية للسلطان المريني أبو عنّان بمدينة فاس والمدينة البيضاء وسلا وشالة وتلمسان.

كتب التراجم لا تقل أهمّية عن المصادر الكتابية الأخرى في الكشف عن إنجازات الحكام مثل كتاب "أعلام الأعلام" لمؤلفه لسان الدين الخطيب (ت: 776هـ/ 1374م) كذكر أعمال بعض أمراء بني الأغلب بإفريقية، مثل الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم الذي شيّد

الماجل الكبير بالقيروان وماجل مدينة القصر القديم، إضافة إلى مجموعة من الزيادات بجامع القيروان وجامع الزيتونة بتونس وبنائه لسور مدينة سوسة.

تساعد المصادر على التتبع التاريخي لتطور العمارة والعمران بالمدن الإسلامية بذكر أعمال التجديد والتوسعة وذلك عبر استقاء المعلومة من مصدر واحد أو بالاستناد إلى عدد من المصادر، فقد تعرّض القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى" إلى تطور عمران مدينة الفسطاط من أيام الفتح على عهد عمرو بن العاص إلى إنشاء القاهرة على عهد الفاطميين.

كما ذكر ابن جبير (ت: 717هـ/ 1317م) في رحلته المراحل التّاريخية لبناء أسوار الإسكندرية التي هدمت من طرف عمرو بن العاص (ض) سنة 22هـ، وجدّد عمارتها من الناحية البرّية عبد الرحمان بن حبيب سنة 132هـ، أمّا الجهة البحرية منها فقد تمّت على عهد هرثمة بن أعْيُن سنة 180هـ، وتعرّضت عمارة السور سنة 345هـ إلى عمليات تدعيم على يد أبو الفتح زيان الصقلي والي طرابلس، ومن أمثلة التطور التاريخي للعمارة أيضا إشارة ابن الخطيب في كتابه <<أعلام الأعلام>> إلى أنّ أسوار مدينة سجلماسة بنيت على مراحل، أوّلها كان على عهد عيسى بن يزيد بن سعد المكناسي سنة 140هـ، واستكمل بناءها أبو القاسم سمغون بن يزيلان الصفري سنة 199هـ.

التعريف بالعوامل المؤثرة على نمو وتطور العمارة والعمران، كالحروب التي كان لها تأثير سلبي على حركة التعمير بالبلاد الإسلامية بسبب الخراب الذي ألحقته بالمدن والنهب لأملاك الدولة، فقد تسببت الحرب بين بني رستم والأغالبة إلى هدم مدينة العباسية الأغلبية التي شيّدها الأمير محمّد ابن إبراهيم بن الأغلب، وأدّت حروب الطرفين السابقين الذكر مع الداعية عبد الله الشيعي إلى خراب مدينة ميلة وتاهرت، ونتج عن ثورة أهل هذه الأخيرة ضدّ الزيريين على عهد السلطان بُلكين إلى خرابها، وعن غزو بني هلال لإفريقية ملك ببني زيري إلى خراب عظيم للعمارة بمدينتي القيروان وصبرة وهدمت حينها القرى وانقطعت الميرة وتعطّلت الأسواق.

ترتّب ايضا عن الصراع بين الزيانيين والمرنيين تدمير كبير للعمارة والعمران بالمملكتين، نذكر منها حملة الأمير المريني يعقوب بن عبد الحق على تلمسان سنة 670هـ/ 1272م خرّبت بسببها الرباع وأفسدت الزّروع وأُحرقت القرى والضّياع، وأدّت الحرب بين بني مرين وملوك الموحديين إلى خراب عدد من المدن مثل مدينة الرباط ومدينة معدن عوّام، ولحق بمدينة المعمورة الخراب أيضا جرّاء الصّراع بين الوطّاسيين وملوك فاس بالمغرب الأقصى.

في المقابل أثبتت المصادر الكتابية أنّ للحروب انعكاسات إيجابية على العمارة العسكرية، وذلك بإنشاء الحصون من البروج والقلاع و الرباطات والمدن العسكرية لِتتّخذ كإقامات للجيوش وقواعد إمداد عند العمليات العسكرية مثل مدينة البصرة والكوفة والفسطاط على عهد الخلافة الرّاشدة، وقصور حسّان بن النّعمان (ض) في حروبه مع ملكة البربر الكاهنة ببلاد المغرب خلال الفترة الأموية، ومدينة الرّصافة معسكرًا لإقامة الجيش العبّاسي على عهد الخليفة جعفر المنصور، ومدينة المحمّدية الفاطمية للتّصدّي لثورة أبي يزيد، ومدينة الرّباط الموحدية لحماية أملاك الدّولة من المسيحيين بالأندلس، ومدينة المنصورة المرينية لمحاصرة تلمسان عاصمة بني زيّان، ومدينة تامْزِيز دْكْت الزِّيانية لمحاصرة مدينة بجاية الحفصية، أو بتعزيز وتقوية دفاعات المدن ببناء الأسوار وحفر الخنادق، فقد دفعت ثورة صاحب الحمار بإفريقية الخليفة الفاطمي أبو القاسم إلى تعزيز الدّفاعات المعمارية لمدينة المهدية بحفر الخنادق حولها، وتسبّب غزو بني هلال للبلاد على عهد بني زيري إلى إحاطة المدينة بالأسوار، وإلى تدعيم أسوار مدينة القيروان من طرف الأمير المعزّ بن باديس.

المجاعات والأمراض من العوامل الاقتصادية والاجتماعية المؤثرة على العمارة والعمران، ومن أمثلتها مدينة القيروان التي أصابها القحط والطّاعون سنة 395هـ، هلك بفعلهما خلقٌ كثير وخلت مساجدها وتعطّلت الأفران والحمّامات، ووفّر النّاس وقودهم بحرق أبواب بيوتهم وخشب سقوفهم وغلت الأسعار.

جاء في المصادر الكتابية ذكر لعوامل أخرى مثل العامل الديني الذي كان له أثر في توجيه العمارة من حيث التخطيط وتوظيف العناصر المعمارية وتقنيات البناء وتوزيع الأسواق والصناعات بالمدينة الإسلامية، مثل صناعة الحدادة وأفران الجير والفخار ودور الدّباغة وذلك قصد دفع الضرر عن الرّعية وقد وقفنا عند ذلك في أكثر من موضع من كتب فقه العمارة، ومن جهة أخرى ساعد العامل الديني على نمو العمارة من خلال العمل بنظام الوقف الذي يرجوا المسلم من ورائه الأجر والثواب عند ربّه جلّ جلاله، حيث نتج عنه كثرة المساجد والمدارس والأسبلة والحمّامات التي قال عنها حسن الوزّان في وصفه لمدينة فاس أنّ عددها مائة حمّام معظمها وقف للمساجد والمدارس.

ذكر العارفين بالبناء من الحكام مثل الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي الذي أظهرت النّصوص على أنّ تخطيط مدينة المهدية تمّت تحت توجيهاته، وجاء فيها أيضا ذكر لأهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة المشرفين على أعمال البناء نذكر منهم الإمام أبو حنيفة الذي كان ممّن عيّنه الخليفة العباسي المنصور للإشراف على بناء مدينة بغداد سنة 145هـ.

كما نقلت إلينا المصادر الكتابية أسماء المهندسين مثل المهندس عبيد الله بن يونس الذي ربط مدينة مراكش بالماء باستعمال الفقارة وكان ذلك على عهد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، والمهندس علي ابن الحاج الذي أشرف على مشروع جلب ماء عين غبولة إلى قصبة رباط الفتح على عهد الأمير المريني يعقوب بن عبد الحق سنة 683هـ/ 1284م.

من أهمية المصادر الكتابية أيضا ذكر الموارد الأولية الطبيعية التي تكثر بمواقع المدن وأقاليمها، وهي من شروط قيام العديد من الصّناعات مثل مدينة بجاية التي اشتهر إقليمها بوفرة الخشب والحديد والقطران والزفت، وقد أدّى ذلك إلى تطور صناعة السّفن وبعث العديد من الصناعات، كما أنّ وفرة مادة الخشب شجعت على البناء بحكم استعمالها ضمن أساليب البناء في الجدران والسقوف وفي تشكيل العناصر المعمارية من أبواب ونوافذ وشبابيك، وفي

صناعة الأثاث المنزلي والأواني، هذه الصناعة التي اشتهر بها حصن قيشاطة بالاندلس لوفرة الخشب بالمناطق المجاورة له حيث كانت تصنع منه القصاع والمخابي والأطباق وغيرها ولكثرة منتوجاتها عمّت بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب على حدّ قول الجغرافي المقدسي(ق: 4هـ/10م) ، وعرفت مدينة بونة ومجانة والأربس وأَرْزْوا بكثرة معدن الحديد بجبالها، إضافة إلى معدن النحاس بجبال كتامة، والفضة والذهب بسجلماسة وتَازْرَرْتْ، وعرفت مدينة مرسى الخزر وتنس وسبتة بإنتاج أجود أنواع المرجان بالمغرب كلّه، وهذه كلّها معطيات تدلّ على وفرة المادة الأولية الصناعية التي ينتج عنها إقامة عمارة صناعية وإنتاج صناعي متنوع موجه للاستهلاك المحلّي والخارجي.

تعرّضت المصادر أيضا إلى ذكر المقالع التي كانت تزوّد المدن بأنواع مواد البناء كالحجارة المستعملة في بعض الصناعات نذكر منها صناعة الطواحين بمدينة مجّانة، أو كمادة بناء مثل مقالع الحجارة البحرية بالإسكندرية، ومقالع الزُّمُرّد الذي كثر استعماله ببنايات مصر الإسلامية وذلك لوفرته بموضع قريب من مدينة قُوص، ومحاجر الرّخام بنواحي قرطاجنة الذي استعمل في بنايات مدن إفريقية عامة وتونس خاصة كما جاء في رحلة العبدري، ومحجرة الإزورد بجبال كتامة، ومحجرة إيجليز بمراكش، ومقالع الجِص بجبال المِرِية بالأندلس الذي استعمل بشكل واسع في بناياتهم في تشكيل ملاط البناء والتجصيص.

حدّدت لنا المصادر الكتابية العائدات المالية المتنوعة من التجارة كمدينة القيروان والمهدية وصبرة المنصورية وبجاية وقلعة بني حمّاد وقسنطينة، أو من مصادر أخرى كالزراعة وتربية المواشي ومن أمثلتها مدينة جزائر بني مزغنى وأرشكول والمسيلة وقلعة بني حمّاد وطنجة، أو من الزكاة والعشور والصدقات والضرائب بمدينة قابس وتنس وغيرهما، كما امتدت هذه الأهمية إلى تحديد قيمة هذه العائدات نقدًا، حيث بلغت خلال الحكم الفاطمي ما قيمته مائة ألف دينار وهذه كلها معطيات اقتصادية تقدّم لنا صورة إيجابية على تطوّر العمارة والعمران خاصة بالحواضر الكبرى.

تعرّفنا المصادر بطرق المواصلات التي لها دور في الحركة التجارية من خلال المبادلات الناتجة عن عمليات التصدير والاستيراد، وبالتّالي إنشاء أسواق كثيرة ونشيطة وكلّ ما يتعلق بها من خدمات للتّجار وزبائنهم على حدٍّ سواء مثل الحمامات والفنادق والخانات على مستوى المدن، إضافة إلى إقامة عمائر تجارية وخدمية على امتداد طرق المواصلات كخانات القوافل والآبار، والعيون والعمائر العسكرية مثل القلاع لتأمين هذه الطرق، ونذكر منها ببلاد المغرب الطريق الرّابط بين إفريقية وفاس، والطريق الرابط بين القيروان ومرسى الدجاج والطريق من فاس إلى سجلماسة، وهذه الطرق تساعد على خلق حركة بشرية ومعمارية بالمدن التي تعبرها.

كما عرّفتنا بالطرق البحرية خاصة في ظل تعدّد المراسي كالطريق البحرية جزائر بني مزغنى – إفريقية، وجزائر بني مزغنى – الأندلس، وهي نماذج تساعد على تقييم حجم المبادلات التجارية الدولية وتحديد نوعها ومدى مساهمتها في مداخيل الدولة التي لها أوجه أخرى مثل الغنائم الناتجة عن الجهاد البحري التي كثيرا ما وُجِّه جزء منها إلى عمليات التّعمير، ويكفي أن نستدل على ذلك بالأعمال المعمارية التي قام بها الخليفة الموحّدي المنصور بمدنه بالمغرب الأقصى كمراكش بعد عودته من حملته من الأندلس.

المصادر والمراجع:

. المراكشي (محيي الدين عبد الواحد إبن علي التميمي)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مطبعة بريل، ليدن، 1881

. الوزان الفاسي (الحسن بن محمد) ، **وصف إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 01، ط. 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

. القلقشندي، **صبح الأعشى**.

. البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)، **فتوح البلدان**، مج. 01.

. ياقوت الحموي (شهاب الدين)، **معجم البلدان**، مج. 02، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.

. الحميري، (محمد بن عبد المنعم)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**.

. إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

. البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

. أبو الفداء، **تقويم البلدان**، دار الطباعة السلطانية، باريس، فرنسا، 1830.

. المراكشي (إبن عذارى)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق، ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، ج. 01، ط. 03، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1982.

. إبن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق، عبد المنعم عامر، ج. 01، الذخائر، القاهرة، 2001.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. التنسي (محمد بن عبد الله)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق، محمود آغا بو عياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.

. التلمساني (محمد إبن مرزوق)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

. النميري (إبن الحاج)، **فيض العباب**، ط. 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990.

. المقريزي، **إتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء الفاطميين**.

. إبن خلدون (عبد الرحمان)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د.ت.

. الطبري (أبو جعفر محمد)، **تاريخ الأمم والملوك**، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د.ت.

. إبن الرامي (أبو عبد الله محمد)، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق، فريد بن سلمان، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999.

. الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.

. المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط. 03، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991.

. العبدري (محمد البلنسي) ، **الرحلة المغربية**، تقديم، سعد بوفلالة، ط.01، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.

. اللاواتي (أبو عبد الله)، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**.

. الفرسطائي (أبو العباس أحمد)، **القسمة وأصول الأرضين**، تحقيق، الشيخ بكير بلحاج و الدكتور محمد صالح ناصر، ط. 02، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1997

. الونشريسي (أبو العباس أحمد)، **المعيار المعرب والجامع المغرب**، الرباط، المملكة المغربية، 1981.

. التجاني (أبو محمد عبد الله) ، **رحلة التجاني**، الدار العربية للكتاب، ليبيا . تونس، 1981.

. البلنسي (محمد العبدري) ، **الرحلة المغربية**، تقديم، سعد بوفلالة، ط.01، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.

. إبن مريم (أبو عبد الله محمد)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

. إبن بطوطة، **رحلة إبن بطوطة**.

. إبن جبير، **رحلة إبن جبير**.

التّحصينات الدّفاعيّة

مدن المعسكرات:

يعود تاريخ ظهورها إلى فترة الفتوحات الاسلاميّة على عهد عمر بن الخطاب (ض) بكل من البصرة والكوفة والفسطاط لتكون قواعدا يقيم بها الجند و تمد جبهات القتال بالرجال و المؤونة، إضافة الى تأكيد الحكم و إدارة الأقاليم المفتوحة، و تعتبر مدينة القيروان التي أسّسها عقبة بن نافع الفهري (ض) بإفريقية على العهد الأموي أوّل نموذج لهذه المدن بالمغرب الإسلامي و عليها اعتمد حسّان بن النعمان(ض) من بعده في حروبه ضد البربر و البيزنطيين.

تواصلت عملية انشاء مدن المعسكرات ببلاد المغرب في الفترات اللاحقة ونستشهد على ذلك بمدينة الرباط التي أسسها الخليفة الموحّدي المنصور للدفاع عن أملاك المسلمين ببلاد الاندلس، كما استغلوا مدنا أخرى لهذا الغرض مثل مدينة فاس عاصمة الادارسة ثالث دولة مستقلّة بالمغرب الإسلامي بعد بني مدرار و بني رستم.

اتخذت هذه المدن أبعادا حربية أخرى بتحوّلها من مدن خلفيّة للدعم و الإسناد الى مدن حصار، و قد نتج عن الصراع المتصل بين الزيانيين و المرينيين انشاء مدينة من هذا القبيل تعرف بمدينة "المنصورة " لمحاصرة تلمسان عاصمة بني زيان، كما يمكن ان تكون هذه المدن على شكل ثكنات لإقامة الجيش تفاديّا لإسكانه مع العامّة، و نذكر منها رصافة بغداد التي اقيمت على عهد الخليفة العباسي جعفر المنصور.

الاسوار:

السور من الشروط الأساسية الواجبة توفرها في تخطيط المدن الإسلامية، و هو عبارة عن حائط يرتفع عن الأرض و يلف حول المدينة جزئيّا أو كلّيا، و تفتح به مجموعة من الأبواب تصل المدينة بخارجها، وقد اتخذت أسوار المدن أشكالا مختلفة كالشكل الدائري في مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، و الشكل المستطيل في مدينة القاهرة الفاطمية، و أشكالا غير منتظمة مثل سور مدينة تيحمامين الحمادية نواحي القلعة بالمغرب الأوسط.

كما تباينت أعداد أسوارها من مدينة إلى أخرى، فقد كان " لمدينة واسط " الأمويّة سور واحد و " لمدينة بغداد " العباسية ثلاثة أسوار، و "لمدينة ماما" سورين، و لتلمسان الزّيانية سبعة أسوار، وتنوّعت مواد البناء المستعملة في رفع هيكله، كالحجارة التي استخدمت في أسوار مدينة المهديّة ونقاوس وأزلي، و الأجر بأسوار " مدينة أغادير" بتلمسان، و الطابية التي وظّفت بشكل واسع في عمارة الأسوار المغربيّة و عبر فترات مختلفة مثل مدينة بلزمة و مجّانة و برشك و وهران و هنين و تنس و تلمسان ومراكش و فاس و غيرها.

لم يكن للمدن الإسلامية المبكّرة اسوارا لأنها كانت معسكرات مؤقتة تنطلق منها العمليات العسكرية، الا أن بتمصيرها تحوّلت إلى مقر استقرار دائم للمسلمين و أصبحت في مطمع الأعداء فوجب تحصينها، وكان ذلك في أواسط القرن الثّاني للهجرة و من أمثلة ذلك مدينة القيروان التي شيّد سورها محمد بن الأشعث سنة مائة و أربعين هجريّة، و بحلول القرن الثّالث للهجرة من النّادر أن نجد مدينة إسلاميّة دون سور ليصبح عنصرا هامّا في مظهرها العمراني إلى جانب الجامع و القصر و السّوق، و قد سجّلنا ذلك في كتب الجغرافيين العرب الذين تعرّضوا لمدن المغرب بالوصف.

إن أهميّة الاسوار تتعدّى الجانب الأمني الى دور اقتصادي هام يتمثّل في تجنّب الخزينة خسائر مالية بفعل ما يعرف اليوم بالتهرّب الضريبي، و ذلك من خلال توجيه التجّار الى أبواب المدينة حيث يدفعون الضرائب على سلعهم مقابل السماح لهم بتسويقها داخل المدينة، ما ينتج عنه انتعاش الخزينة العموميّة ما يؤدّي إلى رخاء اقتصادي تظهر انعكاساته على مختلف المجالات و من ضمنها العمارة و العمران.

كما تنتج عن استعمال الاسوار عدّة مظاهر عمرانيّة و معماريّة بالمدينة الاسلاميّة، كإنشاء الأرباض و ضيق الشوارع و قلّة المساحات الفارغة و التّوسع على حساب الفياصل، إضافة إلى التوجه العمودي للبناء الذي يترتب عنه بدوره استعمال بعض العناصر المعماريّة كالسباط و الروشن.

الفيصل:

يعتبر الفيصل من الإجراءات الدفاعيّة الضروريّة في المدن الاسلاميّة ، و هو نوع من المساحات الخالية من البناء و الغطاء النباتي و خاصة الأشجار يكون بمحاذاة الاسوار من الداخل و الخارج، و ذلك لتسهيل مهمّة المدافعين عن المدينة في حرية الحركة و التّزوّد بالمؤن و المعدّات و لرصد الأعداء من الخارج بشكل جيّد و حماية الرعيّة أيضا، و قد كان بالعاصمة بغداد فيصلا واسعا محصورا بين سورها الواقي و سورها الأعظم.

الخندق:

هو أحد الأساليب الدفاعيّة في النظم الحربيّة، يكون محفورا في الأرض بأعماق مختلفة لتأمين الحماية للمقاتلين ومن أنظار العدو ونيرانه، و لتأمين ظروف أفضل للرصد والرّماية و الحركة وليكون عائقا أمام أساليب الحصار التي يعتمدها العدو لتجاوز دفاعات المنشآت الحربية المحاصرة من مدن و معسكرات و قلاع، و يعود استعمالها عند المسلمين إلى زمن رسول الله صلّ الله عليه و سلم بالمدينة المنوّرة سنة ستّة للهجرة.

يرتبط تخطيط الخندق بتضاريس الموضع الذي تشيّد فيه المدن وباقي التّحصينات الدفاعيّة، فإذا كانت في منطقة منبسطة أو مكشوفة الأطراف يحيط بها إحاطة كاملة، وإذا توفّرت مواقعها على التّحصينات الطّبيعيّة كالمنحدرات والنّهر والبحر يحفر الخندق في الجهة التي يتوقّع منها الخطر مثل خندق المدينة المنوّرة من الشّمال وخندق مدينة الفسطاط من الناحية الشامية، وقد تكتفي المدن بخندقها الطبيعيّة التي تغنيها عن استعمال خنادق اصطناعيّة وذلك لاستدارة الأنهار والأودية الشديدة القعر مثل مدينة قسنطينة.

يختلف عمق الخندق وعرضه وفقا لطبعة ونوعيّة الأرضية التي يحفر بها كما يتصل ذلك بمصادر تزويده بالمياه ودرجة الخطر التي تهدد المباني الدّفاعية، وتشيد حافتيه بمادة صلبة كالآجر والحجارة لمنع انجراف جانبيه، ويجعل الجانب الداخلي له اعلى من الجانب الخارجي لمنع تسرّب المياه الى أسوار المدينة خاصة في الأوقات الممطرة، هذا ما يؤثر في اختيار المواد المستعملة في بناء الأسوار التي تشيّد أساساتها بمواد بناء صلبة كالآجر والحجارة.

اعتمد المسلمون على أنواع مختلفة من الخنادق كالخنادق الجافة وخنادق المياه التي كانت تحفر بصفة خاصة حول المدن، و تطلق فيها المياه حتّى تجعل منها جزيرة يصعب على العدو الاقتراب من أسوارها و كانت تتزوّد من مياه النّهر مثل بغداد العباسيّة و المسيلة العبيدية و ماما الحمادية، او مياه البحر كخندق مدينة الإسكندرية و خندق مدينة المهدية حيث كان يطلق فيها الماء عند الحاجة، و قد استعمل المسلمون نوعا أخر من الخنادق تعرف بخنادق الحصار، الغرض منها محاصرة العدو في نقاط دفاعيّة إضافة الى الاحتماء بها و استغلالها لتنقل الجند للوصول إلى أهدافهم.

لقد أثبتت النصوص الكتابيّة والدراسات الحديثة أنّ دور الخنادق لا يقتصر على الجانب الأمني، بل له أغراض أخرى كاستعماله في سقي الحقول وتوفير حاجيات السكان من الماء عند الحصار، مثل "خندق ظاهر" بمدينة بغداد وخندق مدينة المسيلة بالمغرب الأوسط.

البرج:

بناء مرتفع في سور المدينة أو المباني العسكرية الأخرى من قلاع و حصون و خانات و رباطات و قصور و غيرها، يرابط فيه الجند المكلفون بالدّفاع عنه، و هو على نوعين الابراج القائمة بذاتها و تكون مستقلّة عن المباني الحربيّة الغرض منها حماية النّقاط الضعيفة و مراقبة المناطق المجاورة لها، في حين النوع الثّاني يعرف بالأبراج الحائطية، و تتميّز هذه الأبراج بارتفاعها عن مستوى ارتفاع السور، وكذلك باحتوائها على عدد من العناصر المعمارية الدفاعيّة كالغرف العلوية لقذف النّار و المزاغل بأنواعها و الشرافات ليحتمي خلفها المدافعون، و سقاطات لرمي المقذوفات و صبّ السوائل الحارقة.

عرف البرج تطورا في عمارته، حيث تأثر تخطيطه بالعمارة القديمة التي كان حينها يتكوّن من عدّة طوابق لرفع قدرة استيعابه و بالتالي توفير حماية أكثر، الا أن تعدد طوابقه يجعل الجدران ضعيفة المقاومة، ما دفع بالمسلمين الى جعل هيكله كتلة واحدة و تقام نقاط الدّفاع في أعلاها.

إنّ ابتكار هذا النوع من الأبراج لم يمنع اعتماد النّموذج القديم عند المسلمين في فترات مختلفة، و لها امثلة كثيرة بمدن المغرب الإسلامي كأبراج مدينة بجاية الحفصية و أبراج مدينة هنين و المنصورة المرينية بتلمسان و أبراج مدينة فاس، و هي أبراج مفرّغة لها شكل منتظم مستطيل أو مربّع.

اتخذ المسلمون اشكالا أخرى لأبراجهم، مثل الأبراج المضلعة و الأبراج الاسطوانية هذه الأخيرة التي ظهرت بالعمارة الإسلامية منذ عهد الدولة الاموية و العباسية، و لدينا أمثلة لها في قصر المشتى و قصر الطوبة ببادية الأردن، و بقصر الأخيضر ببلاد الرافدين.

تواصل استعمالها من طرف المسلمين كعنصر معماري ملحق بالبنايات الحربية ففي بلاد المغرب الأوسط لا تزال المعالم الاثريّة تحفظ لنا البعض منها "كبرج الجراد" بمدينة مستغانم و أبراج باب القرميديين و الابراج الحائطيّة بقلعة المشور الزيانية بتلمسان و بالبرج الاحمر المريني بوهران و بأسوار مدينة باغاية بالمغرب الأوسط، و بإفريقيّة استعملت هذه الأبراج بالتحصينات الأغلبية منذ القرن الثاني للهجرة، و لدينا نماذجا لها برباط المونستير و رباط سوسة، أمّا الأبراج المضلّعة بأنواعها السداسية و الثمانية استخدمت بشكل واسع من قبل المرابطين و الموحدين و لها نماذج كثيرة بعمارتهم الدفاعية ببلاد الاندلس.

إنّ دور الأبراج تعدّى الجانب الدّفاعي الى الوظيفة المعماريّة و الجماليّة، و ذلك بالزيادة في متانة الاسوار، و مساهمتها في إزالة رتابة اتساع السطوح و خلق توازن في الإيقاع المعماري على واجهات الأبنيّة.

الرباطات:

هي الحصون والمدن التي تلازمها حاميات من المجاهدين يدافعون عن أرض الإسلام تعبّدا و تدينا و قد وردت في النّصوص الكتابيّة بعدّة تسميات منها القصر و القلعة و الثغر و المحرس، و بمرور الوقت اجتمع السكان حوله بعد ان كان يقام في أماكن معزولة و كثر العمران حوله ليتحوّل الى مدن عامرة اتخذت اسمها منه مثل مدينة الرّباط بالمغرب الأقصى،

و هذا لم يفقده أهميته العسكريّة بل عزّز مكانته ليصبح مركزا للسلطة بها كرباط المونستير الذي صار قصبة المدينة.

يعود اهتمام المسلمين بهذه البناية الحربيّة الى عهد الخلفاء الراشدين(ض)، فعمر بن الخطاب (ض) كان يبعث كل سنة غازية ترابط في الاسكندريّة، كما كانت سواحل الشام مزوّدة بالمحارس و الرباطات، و كان معاوية بن ابي سفيان يوجه اليها جماعات كبيرة من الجند للدفاع عنها اذا ما أغار عليها الرّوم من جهة البحر، و كثر تشييدها ببلاد المغرب في القرن الثاني و الثّالث الهجريين على عهد الاغالبة، و لكثرة عددها كان الخبر يصل من سبتة في المغرب على جبل طارق الى الإسكندرية في ليلة واحدة و بينهما مسيرة شهر.

حافظ الفاطميون من بعدهم على هذا المظهر المعماري و تواصل انتشاره مع استغلال الرباطات السّابقة ومن أمثلتها رباطات سوسة التي جاء ذكرها في كتاب صورة الارض، و قد عرفت هذه المباني خلال هذه الفترة تنظيما لم يعرف من قبل و ذلك بإكسابها صبغة قانونية، حيث أصبحت تحت رقابتهم المباشرة بتعيين موظف رسمي يعرف بالأمين للإشراف عليها و مراقبة المرابطين بها و مداخيل الأحمية و الاحباس و الصدقات الموجهة لخدمتها، و في المقابل تعطل دورها في المشرق الإسلامي حيث تحوّلت إلى ملاجئ للمتصوفين وقد سار الزيريون و الحماديون على نهج الفاطميين، ومن أعمالهم محارس سفاقس بافريقية و رباطات شرشال التي ذكرها البكري في كتابه المسالك والممالك الا أن تعرض البلاد لغزو بني هلال أصاب الكثير منها الخراب وتعطل دورها حسب ما جاء في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي.

استمرت هذه المباني في الحفاظ على طابعها العسكري ببلاد المغرب بسبب استمرار القتال ضدّ النصارى في الاندلس، ولأجل ذلك شيد الموحدون العديد منها لتكون قواعدا تجتمع فيها الجيوش و تنطلق عمليات الغزو الى بلاد الاندلس إضافة إلى استعمالها في حماية السواحل الإسلامية بمنع نزول العدو بها نذكر منها مدينة الرّباط بالمغرب الأقصى و رباطات مدن المغرب لنفس الفترة.

بعد سقوط الدولة الموحديّة و قيام الدويلات الثلاثة واصل المغاربة تشييد هذه العمائر، و قد كثر انتشارها خلال الحكم المريني التي زادت أهميتها باتخاذها مراكزا يحتمي بها الناس و يحفظون بها ودائعهم و أموالهم من الأعداء و في هذا الصدد ذكر العلامة ابن مرزوق انّ السلطان المريني أبو الحسن أنشأ من الرباطات ما لم يعهد مثله في عصر من العصور، حيث كانت خلال حكمه تمتد من اسفي الى جزائر بني مزغنة محارس و مناظر، إذا وقعت النيران في اعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة و ذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحو الشهرين.

أمّا من الناحية المعمارية، فالرباطات متشابهة في تخطيطها مستطيلة الشكل و مسوّرة بأسوار عالية، تحميها شرفات من الأعلى و تدعمها عدد من الأبراج الركنية و الضلعية، لها مدخل واحد يؤدّي الى صحن مكشوف مزوّد بخزانات تستمد مياهها من السقف، تتوزع حوله مجموعة من الغرف موزّعة على طابقين، المعيشية منها بالطابق الأرضي و غرف الجند بالطابق العلوي، و به أيضا المسجد الذي أخذ صبغة عسكرية بتزويده بعدد من الفتاحات للرماية و المراقبة و قد وقفنا على ذلك ميدانيا برباط المونستير بإفريقية.

يتكوّن الرباط أيضا من منارة عالية ، تحتل أحد أركانه نصل إلى أعلاها بواسطة سلم، ما يسمح بالمراقبة و الاتصال مع الرباطات و البنايات الحربية الأخرى بواسطة وسائل الإشارة المتنوّعة من نار و دخان و مرايا، و حمام زاجل خصصت له بالبناية مجموعة من الطاقات ليسرّح منها إضافة إلى دورها الديني المتمثل في رفع الاذان.

القلعة:

تحمل نفس معنى الحصن و القصبة و القصر، يعود ظهورها في العمارة الحربية الإسلامية الى حدود القرن الثاني للهجرة الثامن الميلادي، وهي بنايات مستقلّة بذاتها أو تابعة للمدينة وهي على أنواع، القلاع السلطانية التي تستعمل كمقر للحكم عرفت عند المسلمين منذ فترة مبكّرة، و النّوع الثاني يتمثل في القلاع الثانوية التي تحتوي على كل ما حوته القلعة السلطانية ما عدا القصور الملكية، فهي مقر حكم و لكن على مستوى النيابة، و فيها كل ما تحتاج له

حامية صغيرة، و لقد شهدت بلاد المغرب انتشارا واسعا لهذين النوعين من القلاع تحت ما يعرف باسم القصبة كقصبة المعصومة بمدينة تيهرت، وقصبة بوجلود الموحدية بفاس و قصبة عنابة و قسنطينة الحفصيتان و قصبة هنين و تنس و المشور بتلمسان الزيانية.

كما يدخل تحت هذا النوع من العمائر حصون أو قلاع الحصار نذكر منها قلعة المصامدة التي استعملت في محاصرة تلمسان على عهد المرابطين و قلعة تامزداكت الزيانية التي استعملت في محاصرة بجاية الحفصية، وقد استخدم البعض منها كملاجئ يتحصّن بها الحكام عند الضرورة بعيدا عن مدنهم مثل حصن تاجحمومت بأراضي زناتة من أملاك بني زيّان.

حرص المسلمون في إنشاء قلاعهم على حسن اختيار الموقع الجغرافي لها مع جعلها في أماكن مشرفة منه ما يساعدها على أداء وظيفتها الدفاعيّة، و يوفر لها مدى رؤيا واسع يمكّنها من الاستطلاع و الكشف و الاتصال لمسافات بعيدة، كما يؤمّن لها الحماية اللازمة من الأعداء لحصانتها الطبيعيّة، كما حرصوا أيضا على جعلها في وسط مناخي مناسب يضمن صحّة المقيمين بها، و يساهم في دوام عمارتها مثل قلعة صلاح الدّين بالقاهرة، و معرفة نوعية الوسط المناخي الذي تقام به هذه البنايات له أهميّة بالغة في بناء هذه العمائر حيث يساعد على تكييف عمارتها بالاستعمال الأمثل لمواد و تقنيات البناء و العناصر المعمارية الموظّفة في تشكيل هيكلها و يظهر ذلك في عمارة القلاع ببلاد الأردن.

تستمد القلاع قوتها أيضا من التركيبة المعمارية المشكلة لها و يظهر ذلك في سمك أسوارها و عددها، مثل قلعة الشوبك بالأردن و التي لها ثلاثة أسوار متتالية، إضافة الى اعتماد الخندق مثل قلعة الاكراد بسوريا، و هي عبارة عن حصن داخل حصن بينهما خندق و حولها خندق، إضافة الى العناصر المعمارية المشكلة لها من أبراج و شرافات وسقاطات و طلاقات و أبواب و زلاقات و غيرها.

تضم القلعة أيضا منشآت متنوعة تضمن خدمة حاميتها في السلم و الخطر، نذكر منها البرك و الابار و مخازن المواد الغذائيّة و المطاحن و المعاصر، و الافران و المطابخ و ثكنات للجند، وبها أيضا قاعات للاجتماعات و جوامع و مدارس و سجون و حمامات، و

دكاكين للحرف و اسطبلات و زرائب لقطعان الماشية، و قد تشمل أيضا على دور للضرب مثل قلعة القاهرة و قلعة أيوب بالأندلس.

دور الصناعة البحريّة

يعود أوّل ظهور لها في التاريخ الإسلامي الى عهد الخليفة عثمان بن عفان (ض) بإنشاء معاوية بن ابي سفيان أوّل دار صناعة بالإسكندرية، لتدعم بعدها "بدار صناعة عكا" بالشام و كان ذلك سنة تسعة و أربعون للهجرة، ما مكن المسلمين من تامين سيادتهم بكل من مصر و بلاد الشام من الخطر البزنطي الذي كان يفرض نفوذه على حوض البحر الأبيض المتوسط.

انتقلت هذه الصناعة من المشرق الإسلامي الى مغربه و تحديدا بإفريقية لمعنات المسلمين من خطر البزنطيين الذين كانوا يتحينون الفرص لاسترجاع مستعمراتهم التي افتتحها حسان بن النعمان(ض)، هذا ما دفعه رضي الله عنه الى إنشاء دار صناعة بمدينة تونس استعملها في انتاج السفن و قاعدة بحرية يحتمي بها الاسطول الإسلامي، و تنطلق منها حملاته باتجاه الجزر الرومية كصقلية و سردينية ، و كان ذلك على عهد الحليفة الاموي عبد الملك بن مروان.

كانت هذه الخطوة إذانا لمواصلة هذه الصناعة وإنشاء دور جديدة ببلاد المغرب، شجعتها على ذلك عوامل عسكرية و اقتصادية إضافة الى وفرة المادة الأولية كالأخشاب و المعادن و الزفت نذكر منها دار صناعة المهدية الفاطمية بإفريقية، و دار صناعة الناصرية الحمادية بالمغرب الأوسط.

أما من الناحيّة المعماريّة فهي عبارة عن مركّب صناعي يتشكّل من عدّة ورشات يعمل فيها مختصين كلّ على حسب طبيعة العمل الذي تتطلّبه السفينة في ايطار صناعة السفن أو إصلاحها مثل النجّارين و الحدّادين و صانعي الحبال و الطباخين... الخ، إضافة الى مجموعة من المخازن لحفظ عدّة البحر.

احتوت دور الصناعة أيضا على أحواض معدّة لتزليق السفن بعد الانتهاء من إعدادها، الى جانب وجود فضاءات أخرى تقوم بتصنيع الأسلحة المتنوعة.

العناصر المعمارية:

إنّ ضمان أداء وظيفة مثالية للبنايات الدفاعية يتصل أيضا بنوعية العناصر المعمارية الملحقة بها من أبواب بأنواعها المباشرة مثل أبواب مدينة فاس و تلمسان و المنصورة و هنين، أو المنكسرة (الباشورة) التي اهتم بها المرابطين والموحدين من بعدهم وقد عرفت حينها انتشارا و تطورا في تخطيطها من الشكل البسيط الى الشكل المركب مثل مدخل قصبة هنين بالمغرب الأوسط و مدخل قصبة الاودايا بالرّباط بالمغرب الاقصى، و استخدموها أيضا باسوار مدنهم بالأندلس كباب مدينة قرطبة وباب الزائدة ببطليوس، و اتبع بنو نصر نفس النظام الدفاعي نذكر منها باب العدل أو باب الشريعة بأسوار غرناطة، ويضاف الى العنصر السابق ممشى الجند و ساتره و الشرافات المتعدّدة الأشكال و المزاغل و السقاطات، كلها عناصر معمارية دفاعية كفيلة بتوفير جوّ مناسب للحركة والمراقبة و رماية العدو و الاحتماء منه.

المصادر والمراجع:

- إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.
- البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
- الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.
- مارسي (وليم وجورج)، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تقديم وترجمة، مراد بلعيد وآخرون، ط. 01، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
- محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، عالم المعرفة، الكويت، 1988.
- بوطارن (مبارك)، **تطور العمران الإسلامي مدينتا القيروان وسجلماسة نموذجا**، دكتوراه العلوم في الأثار الإسلامية، معهد الأثار، جامعة الجزائر، 2005 – 2006.
- بوطبة (محفوظ)، أطلس العمارة العسكرية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المصادر المادية والكتابية، دكتوراه العلوم في الأثار الإسلامية، معهد الأثار، جامعة الجزائر، 2017–2018.
- شاكر مصطفى، **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني**، ط.02، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 1997.

- الناصري (إبن محمد حنكلي)، **الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب**، دراسة وتحقيق، نبيل محمد عبد العزيز أحمد، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2000.
- شافعي (فريد)، **العمارة العربية في مصر**،، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1970.
- عبد الفتاح (صفاء حافظ)، **الموانىء والثغور الإسلامية من الفتح إلإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.
- عاصم (محمد رزق)، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، القاهرة، 2000.
- قاجة (جمعة أحمد)، **موسوعة فن العمارة الإسلامية**، ط.01، مطابع السفير التجارية، لبنان، 2000.
- شوشان (الأسعد)، **الموانىء والمراسي بالمغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة**، رسالة ماجستير في علوم التراث، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة تونس، تونس، 2009-2010.
- عشي (علي)، **التوجه البحري للمغرب الأوسط وتأثيره في طرق التجارة والمواصلات**، دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، الجزائر، 2016-2017.
- أسامة طلعة (عبد النعيم)، " ملامح تخطيط المدخل المنكسر في العمارة الدفاعية بين مصر والمغرب الإسلامي "، أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الأثار بين العرب، القاهرة، مصر، 1999.
- مجلة دراسات تراثية (عدد خاص بالعمارة العسكرية)، إصدارات مخبر البناء الحضاري، جامعة الجزائر،العدد: 05/2014.
- مختصر دائرة المعارف الإسلامية.
- Bouruiba (Rachid) ; **L architecture militaire**, O.P.U., 1983.

النسيج العمراني وشبكة الطرقات

المسجد الجامع:

يعتبر المسجد الجامع مركزا للمدينة الإسلامية، حيث يشغل بصفة عامة موضعا وسطا من الساحة المركزية لها، وهي عبارة عن فضاء شاسع فارغ من البناء العام باستثناء المسجد ودار الإمارة والبنايات الإدارية والعسكرية الملحقة بها، ومن أمثلتها جامع القيروان الذي كان يتوسطها وبجواره من النّاحية الشرقية دار الإمارة التي كانت تضمّ مختلف المصالح الإدارية، وجامع المنصور بمركز الرّحبة العظمى من مدينة بغداد وبجانبه قصر الخلافة الذي يعرف باسم قصر الذهب أو قصر القبة الخضراء ، والجامع الكبير بوسط مدينة تاكرارت وبجواره القصر القديم على عهد المرابطين.

كما يمكن أن يكون المسجد الجامع في بعض المدن الإسلامية معزولا عن مقرّها السياسي على هيئة مدينة سامراء, وفاس خلال حكم المرابطين لها، وبمدينة تلمسان على عهد بني زيّان.

أثّر موضع المسجد الجامع من المدينة الإسلامية في توجيه الشوارع الرئيسية التي كانت تنطلق من الساحة المركزية حيث الجامع باتجاه أطراف المدينة حيث أبوابها الرئيسية فقد كان لمدينة الكوفة خمسة عشر شارعا رئيسيا تنطلق من رحبة مربعة حيث المسجد الجامع نحو الاتجاهات الرئيسية للمدينة، وكانت لمدينة بغداد أربعة شوارع تصل الرحبة العظمى بأبوابها.

أجاز الفقهاء مع النّمو العمراني الذي عرفته المدن الإسلامية بإقامة الصلاة الجامعة في أكثر من موضع، فتعددت المساجد في المدينة الواحدة ومن أمثلتها مدينه القاهرة، وقد أثر هذا الإجراء في مساحة المساجد من جهة وفي توجيه امتداد شوارع المدينة من جهة أخرى.

الشوارع والطرقات:

الطريق أو الشارع هو شريان الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بالنسبة للمدينة الإسلامية وهمزة وصل بين أجزائها وموقعا للغرباء والتجار وزوار المدن وهي على ثلاثة أنواع:

الطرق العامة: تتمثل في الشوارع الرئيسية للمدينة وتحددها في أغلب الأحيان المداخل الرئيسية لها هذا ما يجعلها تصل بين مختلف اتجاهات المدينة.

الطرق الثانوية: هي أقل اتساعا من الشوارع الرئيسية وما يميزها عن هذه الأخيرة هو أن استعمالها من قبل جماعة المسلمين يقل وبالتالي تزداد سيطرة الفريق الساكن عليها ما يكسبها نوعا من الخصوصية.

الطرق الخاصة: تعرف أيضا بالشوارع الغير النافدة او الدروب، وهي ملك ساكنيها فقط لذلك سميت بالخاصة، واقام لهذه الدروب ابوابا الغاية منها توفير الأمن والخصوصية، يشرف عليها حراس يحصلون على أجورهم من أهل الدرب الذي تقع عليه البوابة، وقد كانت هذه البوابات تترك مفتوحة أثناء النهار، وتقفل بالليل بعد صلاة العشاء وبعضها بعد صلاة المغرب، وكانت تغلق ايضا أثناء النهار حينما تقع اضطرابات أو حروب أهلية.

تتميّز شوارع المدينة الإسلامية عن مدن الفترة القديمة (رومانية، بيزنطية) بكثرة الانكسارات وذلك متصل بعدّة عوامل تضاريسية ومناخية وبالحركة المعمارية المستمرة التي تشهدها المدينة، إضافة إلى عامل الخصوصية.

يمكن أن تكون شوارع المدينة الإسلامية مسقوفة في بعض أجزائها، وقد عرف هذا المظهر المعماري باسم السّباط وهو من عناصر الاتصال والحركة، عبارة عن سقيفة تستند على جانبي الطريق على ارتفاع لا يضر بالمارة ولا يعيق حركة المرور، وقد سمح هذا العنصر بتوفير الظل الذي يقي الناس من الحرارة في المناطق التي اشتهرت بشدّة الحرارة، وبالسماح

بالتوسع المعماري تارة أخرى في المدن التي عُرفت بالتكدس العمراني وبصفة خاصة في المناطق ذات الأنشطة الاقتصادية الكثيفة.

حرص أولي الأمر على حفظ حق الطريق نزولا عند نصوص شرعية كما جاء في كتب فقه العمران الإسلامي، وذلك بحماية المارة من الأذى المادي والمعنوي المترتب عن البناء أو رمي الأوساخٍ، ولتحقيق ذلك جُهزت بالأرصفة وبلّطت بالحجارة وحدّدت بها مواضع حيث شيّدت بنايات لقضاء الحاجة تعرف بالمناصع.

الأسواق:

تعدّ الأسواق من المؤسسات الرئيسية المشكلة للنسيج المعماري للمدينة الإسلامية، وتكون إمّا على شكل مجموعة من الحوانيت أو الدّكاكين المخصصة لنشاط حرفي أو تجاري معين موزعة على جوانب الشوارع، أو عبارة عن بناية معمارية واحدة تضمّ عددا من الدكاكين مخصصة لتجارة معينة وتقدم خدمات للتجار كالإقامة نذكر منها الفنادق والخانات، ويكثر هذا النّوع بالمدن المكتظة.

كانت الأسواق تشغل في المقام الأوّل المناطق المحيطة بالمسجد الجامع ومن أمثلتها المدن المبكرة بالبصرة والكوفة وواسط، وحول مسجد المنصور ببغداد قبل نقلها إلى الكرخ خارج أسوار المدينة، وحول جامع سامراء على عهد الخليفة المعتصم، وبجوار مسجد القرويين بفاس.

تتوزّع الأسواق أيضا على امتداد الشوارع الرئيسية ومن نماذجها الأسواق التي كانت قد شيّدت في الطاقات المحيطة بالشوارع الرئيسية الأربعة المؤدية إلى بوابات مدينة الزوراء، والأسواق التي كانت على جانبي الشارع الأعظم بمدينة القيروان، إضافة إلى الأسواق التي كانت تحتل الشارع الرئيسي لمدينة تونس، وعلى جوانب شارع الطلعة الكبرى بمدينة فاس والذي كان يربط بين مركز المدينة وباب محروق، ونجدها أيضا بالأحياء السكنية حيث تتوزع بين الشوارع العامة، في حين تخلو منها الشوارع الخاصة لأنها موجهة للسكن فقط.

امتدت بعض الحرف والنشاطات التجارية والصناعية لتشغل أطراف المدينة أو خارجها وذلك للتكامل الموجود بين بعضها البعض مثل المذابح وأسواق المواشي، أو نظرا لما يترتب عن بعض الأنشطة من أصوات مزعجة ودخّان وروائح كريهة مثل معاصر الزيتون والدباغة وأفران الجير والفخّار، وقد أملت حاجت بعض الأنشطة لمساحات واسعة أثناء مراحلها الصناعية إقامتها أيضا في أطراف المدينة أو خارجها مثل معامل معالجة الخشب خارج أسوار مدينة فاس وصناعة الحصير جنوب شرق مدينة القاهرة.

الأحياء السكنية:

تتشكل من مجموعة من المساكن مزودة بمرافقها الحيوية المختلفة من مساجد ومدارس وحمامات وأسواق ...الخ، وتتضح معالمها بواسطة الشوارع الفاصلة بين كلّ حي وآخر.

تتميز المساكن الإسلامية بصفة عامة بالتّراص، كما أنّ مظهرها الخارجي يتميّز بالبساطة وقلّة الفتاحات به، هذه البساطة التي عُوضت بالفضاء الداخلي المتمثل في صحن مكشوف تحيط به مجموعة من الغرف عبارة عن مرافق معيشية مثل المطبخ والمخزن وغرف المبيت، وكثيرا ما تتشكل هذه المساكن من أكثر من طابق أو ما يعرف بالتوجه العمودي في العمارة، وهذه الظاهرة في الغالب لها علاقة بالمساحة (قلّة العقار) وبالرفاهية أحيانا أخرى.

كما أن واجهات المباني تزوّد بالظلات لتوفير الظل بالشوارع، والرواشن لتحضير أرضية لتوسيع المبنى في الطوابق العلوية مع الحرص على عدم الضرر بالجار والمارة من الناس ودوابهم حسب ما أقرته كتب فقه العمارة الإسلامية.

التحصينات:

رغم تعدد مظاهر التحصينات المعمارية التي تحمي المدينة الإسلامية إلا أن أهمها تتمثل في الأسوار التي حددت ضمن شروط إنشاء المدن لأنه غالبا ما يتوقف عليها مناعة المدينة

من عدمها، فقد أثبتت الكتابات التاريخية على أنها من أهم المحوار في تخطيط المدينة إلى جانب المسجد الجامع ودار الإمارة والأسواق.

تمثل أسوار المدن الحدود الخارجية لها والحد الفاصل بينها وبين ضواحيها ولها تأثير في تخطيط منشآتها، بحيث تعد السبب في عدم انتشار المساحات الفارغة والميادين المتسعة والحدائق الواسعة، وإليها يرجع السبب في تخصيص مساحات كبيرة خاصة بالتجمعات السكانية الكبيرة مثل الأسواق الأسبوعية ومصلى العيد والمصارة (ميادين مستوية وواسعة مخصصة للتدريبات العسكرية والفروسية وأماكن للترويح العام) خارج المدن, كما أن السور من اسباب التوجه العمود للبناء في المدينة وفي انتشار بعض العناصر المعمارية مثل السباط والروشن .

حرس المسلمون في إنشاء الأسوار على جملة من الاعتبارات الأمنية التي لها انعكاس مباشر على تخطيط التركيبات المعمارية المختلفة للمدينة، ونذكر منها الفيصل الذي لا بدّ منه في النظام الدفاعي للمدينة نظرا لدوره في توفير الأمن للرعية واستغلاله في تنفيذ العمليات العسكرية عند اجتياح العدو للمدينة, ومن أمثلته في المدن الإسلامية فصيل مدينة الرافقة الذي كان محصورا بين سوريها، ويزيد عرضه 20م.

يدعم هذا النظام الدفاعي خندق في المدن المشيدة في الأراضي المفتوحة والمنبسطة حيث يحيط بها إحاطة كامله أو في بعض أجزائها حيث يكون التحصين ضعيفا مثل المدينة المنورة، ويمكن الاستغناء عنه في المدن التي تتمتع بنظام تحصين دفاعي معماري وطبيعي جيد مثل مدينه قلعة بني حماد، وتضاف إلى هذا النظام الدفاعي مجموعة من التحصينات توزع بالمدينة أو خارجها وفق عوامل مختلفة جغرافية اقتصادية...الخ.

الأرباض:

تتألف المدينة الإسلامية أيضا من الأرباض التي تقام خارج أسوارها وهي على شكل مدينة مصغرة منظمة حول مسجدها فيها أسواق ومخازن للغلاّت وحمامات وأفران يربطها بالمدينة الأم السور العام والمسجد الجامع والمراكز الإدارية.

عرفت المدينة الإسلامية انتشارا كبيرا للأحياء السكنية خارج أسوارها نذكر منها ربض المدمنة وربض السدر وربض الروحاء بالقيروان, وذكر ابن حوقل ان لمدينة باغاي (باغاية) ربضا به أسواقها وعليه سور، وكان لمدينة ميلة ربض ولمدينة طبنة أرباض منها الربض الذي كان خارج باب الفتح ولمدينة تونس على عهد الحفصيين أربعة ارباض نذكر منها ربض خارج باب السويقة وربض خارج باب المنارة وربض خارج باب البحر, و يمكن ان تصبح المدن ارباضا لمدن جديدة مثل أغادير الإدريسية التي أصبحت ربضا لمدينة تلمسان الزيانية، ومدينة الرقة التي تحولت إلى ربض لمدينة الرافقة العباسية.

إن إنشاء الأرباض أو تشكلها ناتج عن النمو العمراني للمدينة الأم المحصورة بين أسوارها، أو راجع لأسباب أمنية مثل ربض الكرخ ببغداد العباسية، وربض زويلة بجوار المهدية العبيدية بإفريقية.

المقبرة ومصلّى العيد:

كانت المقابر على عهد سيدنا النبي محمد (ص) موزعة على أحياء المدينة توزيعا قبليا، قبل أن يتم نقلها في السنة العاشرة للهجرة إلى مقبرة البقيع خارج المدينة، وقد كان بالبصرة والكوفة لكل قبيلة مقبرة تشغل حيّزا من رحبتها وتعرف باسمها، إلاّ أن التوسع العمراني للمدينة الإسلامية جعل بعض المظاهر العمرانية التي تحتاج إلى مساحات واسعه تقام خارج المدينة ومن ضمنها المقابر التي لدينا أمثلة كثيرة لها بالمدن كمقبرة سوسة بالجهة الجنوبية ناحية باب القيروان، ومقبرة مدينة تونس بالناحية الغربية نصل إليها عبر باب أرطة، ومقبرة

طبنة بالجهة الشرقية لها، ومقبرة تلمسان بالجهة الجنوبية الشرقية حيث العبّاد، وقد انعكس موضع المقابر من أبواب المدينة على مسمياتها مثل باب المقبرة ببسكرة, وباب المقابر بعنابة.

المصليات أو الشريعة هي الأخرى كانت تقام خارج المدينة بمقربة من مقبرة المدينة على أرضيات واسعة ومستوية، وقد تكون في الهواء الطلق أو يحيط بها سور مزود بمحراب ليتعرف به على اتجاه القبلة، ومن أمثلتها ما جاء في رحلة التجاني كمصلى مدينة توزر الذي كان يحيط به حائط مرتفع البناء، ومصلى طرابلس بالناحية الغربية لها قبل أن يتم نقله إلى موضع آخر في الجنوب الشرقي لها، ومصلى المهدية بالناحية الغربية لها على بعد مائة متر ونيف عن سورها، وكان لمدينة جزائر بني مزغنى قبلة للشريعتين على حد قول البكري.

غالبا ما تكون المصليات بالقرب من المقابر مثل مصلى العيد بطبنة، ومصلى قلعة هوارة بالجهة الغربية لها، ومن أهداف تقريب المصليات من المقابر الحفاظ على عادة زيارة المقابر بعد أداء صلاة العيد.

استغلت المصليات في بعض المدن الإسلامية أماكنا للتدريبات والعروض العسكرية تارة وكمعسكرات للجند تارة أخرى، فقد ذكر التيجاني أن مصلى مدينة توزر كان يستعمل لهذا الغرض.

المصادر والمراجع :

. روجي إدريس (الهادي)، **الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقيا في عهد بني زيري من القرن 10 إلى 12م**، ترجمة، حمادي الساحلي، ج.02 ، ط. 01، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992.

. عبد الرزاق أحمد (أحمد)، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، ط.01 ، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، 2002.

. وليم وجورج مارسي، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تقديم وترجمة، مراد بلعيد وآخرون، ط. 01، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

. روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

. شاكر مصطفى، **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني**، ج.01، ط.02، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، 1997.

. أحمد عبد الواحد ذنوب، **تطوير عمارة المساجد**، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2014.

. عبيد السبيعي، **قراءات في الفكر المعماري والعمراني العربي والإسلامي**، جامعة الزيتونة، تونس، 2008.

. خالد عزب، **فقه العمارة الإسلامية5+===**عوض عادل رفق، أبو العلا محمد توفيق، **هندسة المدن وعلوم البيئة**، تونس، 2003.

. إبن الرامي (أبو عبد الله محمد)، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق، فريد بن سلمان، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999.

. يحيى وزيري، **العمران والبنيان في منظور الإسلام**، ج. 02، ط.01، روافد، الكويت، 2008.

. صبري فارس الهيتي، " تخطيط مدينة بغداد "، مجلة الموارد، مج. 08، العدد 04، العراق، 1979.

. ليوبولدو تورس بالباس، **المدن الإسبانية الإسلامية**، ترجمة، دورودي لابنيا، ط. 01، 2003.

. بوطبة (محفوظ)، **أطلس العمارة العسكرية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المصادر المادية والكتابية**، دكتوراه العلوم في الأثار الإسلامية، معهد الأثار، جامعة الجزائر، 2017-2018.

. الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.

. إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

. البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

. الوزان الفاسي (الحسن بن محمد) ، **وصف إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 02، ط. 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

. التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) ، **رحلة التجاني**، الدار العربية للكتاب، ليبيا . تونس، 1981.

- Michel Vander Meerschen ; **les medinas maghrebines**, unesco, 1987.

أساليب البناء ومقوماته الفنية

تختلف مواد وتقنيات البناء بناءا على نوعية المادة البنائية المتوفرة بموضع أو موقع التشييد ولذلك أيضا علاقة بعامل المناخ لما لها من أهمية في التعديل الحراري للبناية، ويتصل استعمالها أيضا بنوعية البناية والمستوى الاقتصادي للفرد أو الدولة، وعلى هذا الأساس وقع إختار المعماري المسلم لمواد وتقنيات البناء لتشكيل بناياته.

تقنية البناء المنتظم:

يتم تنفيذ هذه التقنية بإستعمال الآجر أو الحجارة المهذبة لإنتظام أشكالها ويتم الجمع بين قطعها بالملاط (رمل + جير + يضاف إليه أحيانا مسحوق بقايا المواد الصناعية من الآجر والقرميد وأحيانا أخرى رماد الخشب لتوفره على مادة الجير)، ويتم تنفيذ التقنية بوضع قطع الآجر أو الحجارة أفقيا على شكل مداميك ، وتترك الجدران المشكلة بهذه التقنية في الغالب دون تكسية نظرا لمظهرها الجمالي المترتب عن نوعية مواد بنائها وانتظامها، كما تستعمل هذه التقنية ككسوة للجدران المشكلة من الطابية لهشاشة هذه الأخيرة .

تقنية البناء بالتناوب:

يعود استعمال هذه التقنية إلى الفترة القديمة الرومانية ثم تواصل استعمالها بالعمارة الإسلامية ببلاد المغرب عند الزيريين والحماديين بأشير و القلعة وعند الزيانيين بتلمسان وإستمر إستخدامها في العمارة الحديثة عند العثمانيين ومن أمثلتها قصبة مدينة الجزائر، ويتم تنفيذها بالمزج بين تقنيتين أو أكثر حيث تقوم بتكرار المداميك بالتناوب، ومن مزايا هذه التقنية الزيادة في متانة المبنى.

تقنية البناء بالسنبلة:

تعتمد هذه التقنية بالدرجة الأولى على مادة البناء بالآجر، وتشبه وضعية قطع الآجر في هذه التقنية حبات القمح في السنبلة إلى حد كبير ومنها أخذت تسميتها، ويتم تنفيذها بوضع

صفين مائلين من الآجر ممتدان بشكل طولي مشكلان زاوية حادة من 45 الى 50 درجة. هذه التقنية هي الأخرى لا تحتاج إلى تكسية نظرا لمنظرها الجمالي الذي تضفيه على البناية، كما تصلح هذه التقنية إضافة إلى بناء الجدران في ترميم الفجوات فيها وفي ترصيف الأرضيات.

تقنية آدية (الشناوي):

هي طريقة تنظم فيها مواد البناء الآجر أو الحجارة في مداميك بطرية عمودية وعرضية بالتناوب، ومن مميزات هذه التقنية قوة التحمل والتماسك إضافة إلى إكساب البناء مظهرا جماليا.

تقنية البناء بالطابية:

تتشكل الطابية أو التراب المدكوك من مادة طبيعية طينية أو كلسية تضاف إليها قطع صغيرة من الحصى أو بقايا المواد الصناعية من الفخار والقرميد، ثم تضاف عليها أيضا مادة الجير من أجل تثبيتها وإعطائها قوة التصلب.

تعود هذه التقنية إلى الفترة القديمة حيث استعملت عند الفنيقيين والرومان، واستمر استعمالها عند المسلمين في بلاد المغرب بإسهاب منذ القرن 5 – 6هـ / 11 – 12م خاصة في البنايات العسكرية، وذلك لوفرة المادة الأولية وسهولة وسرعة تشكليها إضافة إلى دورها في التعديل الحراري للبناية، ومن أمثلة إستعمالها في المغرب الأوسط أسوار مدينة برشك الحمادية وأسوار مدينة هنين وتلمسان الزيانية و قصر العباد وأسوار و جدران المسجد الجامع بالمنصورة المرينية وبالقصبة الحفصية بعنابة.

تنفذ هذه التقنية بسكب خليط البناء في قالب خشبي إرتفاعه ما بين 75 – 80 سم، يتشكل كل وجه من وجهيه من عدد من القطع الخشبية الممتدة بشكل طولي، وعند جفاف الجزء المشكل من البناية يتم رفع القالب إلى مستوى أعلى بحيث يحمل ويثبت بأوتاد خشبية وتتكرر العملية إلى أن يتم البناء.

المصادر والمراجع:

. عريف كريم، **العمارة لريفية مواد وتقنيات بنائها منطقة القبائل الكبرى نموذجا.**

. الأمين عمر، **مواد وتقنيات البناء دراسة تحليلية وتطبيقية على مدن أشير والقلعة وبجاية.**

. مهيبل سعيد، **مواد وتقنيات البناء قصر الداي بقلعة الجزائر في العهد العثماني.**

أنواع المدن

إنّ المتصفّح للمصادر العربية خاصة الجغرافية والتاريخية، يقف في أكثر من موضع منها على تصنيفها لأنواع المدن الإسلامية حسب مواضعها الطبوغرافية ومنها اكتسبت مسمّياتها مدنا بحرية وبرّية وصحراوية، ومن أمثلتها قول المقدسي (ق: 4هـ/10م) في وصف مدينة وهران: " مدينة كبيرة سهلية جبلية "، وقول أبي الفداء في وصف القيروان: " مدينة القيروان محدثة بُنيت في صدر الإسلام...، وهي في صحراء... "، ومدينة فاجنة سهلية كما جاء ذكرها في كتاب المسالك والممالك للبكري (ق: 5هـ/ 11م)، وارتبط تصنيف أنواعها أيضا بطبيعة وظيفتها، وعلى هذا الأساس عرفت بالمدن السياسية أو العسكرية أو التجارية أو الدينية.

مدن الخلافة:

أسّست لتكون عواصما وقواعدا لأنظمة الدولة الإسلامية الحاكمة، حيث تضمّ مقر الحكم الذي يحمل عدّة تسميات اقترن اختلافها بالظرف الزماني والمكاني للدولة الإسلامية، بحيث عرف بدار الإمارة وقصر الخلافة وقصر الحكم أو الملك أو القصبة، هذه التسمية التي انفردت بها بلاد المغرب منذ فترة متقدّمة من الحكم الإسلامي إلى نهاية الحكم العثماني لها، وما يميّز هذا النوع من المدن أنها أكثر تطورًا وأسرع نموا وذلك لرعاية واهتمام الحكام بها مقارنة بغيرها من المدن.

مدن الخلافة:

تعتبر المدينة المنورة أول عاصمة سياسية في التاريخ الإسلامي منذ عهد الرسول محمد (ص) ودار إمارتها المسجد النّبوي الشريف، وبعد أن هدأت فترة الفتوحات الإسلامية خاصة بعد الخلافة الراشدة اتخذ المسلمون عدّة عواصم سياسية نذكر منها دمشق عاصمة الخلافة الأموية والهاشمية وبغداد وسامراء والمتوكلية عواصما للخلافة العباسية، وانفرد الأمويون في

نفس الفترة بقرطبة عاصمة لهم ببلاد الأندلس والعباسية ورقادة والمهدية وصبرة المنصورية وتونس دورا لملك الأغالبة والفاطميين والزيريين وبني حفص بالمغرب الأدنى، وسجلماسة عاصمة بني مدرار وفاس عاصمة الأدارسة والمرنيين ومراكش عاصمة المرابطين والموحدين بالمغرب الأقصى، وتاهرت وقلعة بني حمّاد وبجاية وتلمسان عواصما للمغرب الأوسط على عهد بني رستم وبني حماد وبني زيان تبعا.

ارتبط في الغالب إنشاء هذه المدن بعوامل سياسية وأمنية، فقد كان لميول أهل الكوفة ودمشق للأمويين سببًا في عدم اتخاذهما عواصمًا لبني العبّاس، ما جعل الخليفة أبو العباس السفّاح يُغيّر باستمرار مقرّ حكمه من الكوفة فالأنبار ثم الحيرة ليستقر في الأخير بالهاشمية.

كما أن نقل عاصمة العبّاسيين من بغداد إلى سامراء سببه أمني، وذلك لتخوّف الخليفة المعتصم من ثورة الأهالي ضدّه بعد استيائهم من المضايقات التي كانوا يتعرّضون إليها من قبل الجند الأتراك الذين اعتمد عليهم الخليفة في حماية نظام حكمه، وببلاد المغرب شيّد الخليفة الفاطمي المهدي مدينة المهدية خوفا من الثورات الخارجية التي يقودها أبو يزيد صاحب الحمار، وبنى مدينة الزويلة مجاورة لها احترازا من حدوث ثورات للأهالي ضدّه بالمدينة، ويمكن أن يتصل إنشاؤها أيضا برغبة الحكام في تخليد أسمائهم بإقامة إنجازات معمارية وعمرانية شخصية، نذكر منها مدينة أبي المهاجر الدينار (ض) التي أقامها لتكون مقرّ سلطته عوضًا لمدينة القيروان وكان ذلك سنة 55هـ، ولنفس الغرض شيّد الخليفة المتوكل مقر خلافته الجعفرية وانتقل إليها سنة 247هـ/ 861م، وعلى نهجهم سار الحاجب المنصور بن أبي عامر بتشييده مدينه الزاهرة بالأندلس سنة 370هـ / 980م.

مدن عسكرية:

يعود امتدادها التاريخي عند المسلمين إلى فترة الفتوحات الإسلامية على عهد الخلافة الرّاشدة بكل من البصرة والكوفة والفسطاط، وقد شُيّدت لتكون مركزا لإقامة الجيش الإسلامي

وقواعدًا لانطلاق وتمويل الحملات العسكرية، إضافة إلى تأكيد الحكم على المناطق المفتوحة، وتُقام أيضًا لمحاصرة العدو في معاقِله ومنها تنطلق محلاّت الجيش لاستخلاص الضرائب ولحماية الأماكن التي يرتقب مباغتتها من طرف العدوّ.

عرف هذا النوع من المدن استعمالا واسع النّطاق من قبل المسلمين، ومن أمثلتها بالمشرق الإسلامي مدينة العسكر العبّاسية التي شيّدها قائد الجيش صالح بن علي شمال شرق الفسطاط سنة 133هـ/ 750م، لتكون ثكنة تأوي الجند العباسيين القادمين لفتح مصر ثمّ شيدت بها دار الإمارة والمسجد الجامع، وظلّت مقر الولاّت العباسيين إلى أن شيّد أحمد ابن طولون مدينة القطائع في الشمال الشرقي منها واتخذ منها عاصمة لدولته، وبالجانب الشرقي لنهر الفُرات شيّد الخليفة جعفر المنصور سنة 155هـ/ 772م مدينة الرّافقة ورتّب بها الجند من القبائل الخراسانية بهدف حماية الجهة الشامية من غارات الرّوم.

تعتبر القيروان من المدن العسكرية الأولى التي أُقيمت ببلاد المغرب في منتصف القرن الأوّل للهجرة، وتدعّمت بمدنٍ أخرى خلال هذه الفترة نذكر منها قصور حسّان ناحية برقة التي اتخذ منها حسّان بن النّعمان (ض) معسكرًا له في حروبه ضدّ الكاهنة ملكة البربر، وشيّد أيضًا بمدينة رادس رباطًا ودار صناعة لحماية الجبهة البحرية من الرّوم، وقد حافظت فيما بعد على ميزتها العسكرية حيث اتخذت قاعدة لغزو جزيرة صقلية وافتتحوا الكثير من مدنها بقيادة أسد بن الفرات سنة 212هـ.

كما لدينا أمثلة أخرى لمدن المعسكرات كمدينة المحمدية التي شيدها الخليفة الفاطمي أبو القاسم سنة 315هـ لتكون قاعدة عسكرية له بالمنطقة يمتار منها في حروبه ضد أبي يزيد صاحب الحمار، ومدينة أشير الزيرية التي تعتبر أحصن مدن المغرب الأوسط بفضل مناعتها الطبيعية والمعمارية وإلى ذلك أشار البكري في قوله: << جليلة حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولاً ومراما ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلاّ من موضع

يحميه عشرة رجال وهو في شرقيها... وساير نواحيها تزلّ عنها العيون فكيف الأقدام وهي مع ذلك بين جبال شامخة بها محيطة بها دايرة عليها...، والذي بنى سورها بلكين يوسف بن زيري بن منّاد الصّنهاجي سنة سبع وستين وثلاث ماية >>، وقد كانت لهذه المدينة أهمية بالغة في العمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش الزيري، حيث يستريح بها الحاكم وعسكره في حملاته ضد الثائرين، مثل حملة المنصور على تاهرت وفي طريق عودته حلّ بمدينة أشير وأقام بها وكان ذلك سنة 379هـ.

عرفت بلاد المغرب خلال الفترة الموحدية تشييد عديد من المدن العسكرية بالمغرب الأقصى وفي مقدمتها المدينة التي شيدها الأمير عبد المؤمن بن علي بجبل اجليز ليستند عليها في محاصرته لمرّاكش عاصمة المرابطين، كما كانت لهم مدنا أخرى كان للأمير يعقوب المنصور حصّة الأسد في بنائها، نذكر منها مدينة الرّباط بالضفة الغربية لنهر أبي الرّقراق، اتخذ منها قاعدة لنجدة وحماية رعيته وأملاك الدولة بالأندلس في أوقات الخطر، وقد ذكر حسن الوزّان الفاسي أنها لا تختلف في عمارتها عن مراكش دار ملك الموحدين، حيث كانت تضم المساجد والمدارس وكل أنواع القصور والدّور والدّكاكين والحمامات ونقل إليها الماء باستعمال قناة محمولة على قنطرة من عين تبعد على المدينة بأميال.

كانت للمنصور أيضا مدينة أخرى تعرف بالقصر الكبير ومنها تمت جوازاته العديدة إلى الأندلس قصد الجهاد، وقد ساهمت إقامة السلطان بها في موسم الصيف، وخصوبة أراضيها على توسع عمرانها، ومن مجمل ما شيّده بها المساجد والمارستان وخزانات المياه التي كانت تستمد مياهها من الأمطار.

تضاف إلى هذه الإنجازات المعمارية مدينة المعمورة التي بينت على مصب نهر سبو لحماية المصب ومنع دخول سفن الأعداء إلى النهر لأن مصبات الأنهار من أنسب الأماكن لرسو السفن، وقد خرّبت أيّام حروب الوطّاسين مع ملوك فاس.

واصل بنو مرين في استغلال المدن العسكرية الموحدية مثل مدينة القصر الكبير التي استعملها السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق في جوازه إلى الأندلس لنصرة ابن الأحمر حاكم غرناطة، ومدينة المنصورة بالمغرب الأوسط التي شيدها السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق سنة 700هـ/ 1300م لمحاصرة تلمسان.

مدن تجارية:

تشيد بمواقع استراتيجية تضمن نشاط الحركة التجارية من خلال توفر الظروف الملائمة من الطرق السالكة والمياه والأمن، وعلى هذا الأساس أنشأ المسلمون مدنهم على امتداد الطرق البرّية وقد أشارت المصادر الجغرافية إليها بإسهاب من خلال التطرّق إلى المسالك البرية أو البحرية ومن أمثلتها ببلاد المغرب المدن الموزعة على طول الطريق الرابط بين القلعة وبجاية خلال العهد الحمّادي.

كما ساعدت طبيعة سواحل بلاد المغرب الإسلامي على اتخاذ عدد كبير من المراسي، وبجوارها أقيمت مدنًا ساهمت في إنعاش اقتصاد الدول من خلال المبادلات التجارية المختلفة، نذكر منها من المغرب الأوسط مدينة مرسى الدّجاج ومدينة جزائر بني مزغنّى خلال الفترة الحمادية، ومدينة هنين ووهران ومرسى أرزيو على عهد بني زيّان ومدينة اصيلا على البحر المحيط على عهد الادارسة.

يمكن ان تشغل هذه المدن أيضا مواضعا بالقرب من المراكز الصناعيه، كمدينة معدن عوام كذلك شيّدها عبد المؤمن بن علي بنواحي خنيفرة بالمغرب الأقصى لوجود منجم حديد بالمنطقة، وقد كانت على عهد المصامدة مدينة عامرة بها منازل جميلة ومساجد وفنادق على حدّ قول حسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا.

المدن الدّينية:

خلّد المسلمون عددًا منها، وتكون غالبا بجوار الأضرحة والزوايا، ومن أمثلتها ببلاد المغرب مدينة البطحاء التي شيّدها عبد المؤمن بن علي بنواحي شلف بالمغرب الأوسط، وقد تشكّلت حول ضريح شيخ كان من المخلصين للسلطان الموحدي وبالقرب منه بنا جامعا ثم أمر بتعمير المدينة حوله، وقد أنزل بها عشرة رجال من كلّ قبيلة من قبائل المغرب، وظلّت هذه المدينة عامرة إلى أن هُدمت على عهد السلطان الزياني أبو تاشفين عبد الرحمان بن أبي حمّو موسى الأول.

وببلاد المغرب الأقصى شيّد السلطان المريني يوسف بن يعقوب مدينة الزّاوية بنواحي فاس، وأسّس بها زاوية كبرى و اوصى أن يدفن بها إلاّ أنه لم يكتب له ذلك، فبموته محاصرا لتلمسان هدمت المدينة ولم يبق قائما بها غير جدار الزّاوية.

المصادر والمراجع:

- المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط 03، مكتبة مدبولي، مصر، 1991.
- أبو الفداء (عماد الدّين إسماعيل)، **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.
- البكري (أبو عبيد الله)، **المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، د.ت.
- عثمان عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، عالم المعرفة، الكويت، 1988.
- أحمد عبد الرزاق (احمد)، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، ط01، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، 2002.
- ياقوت الحموي (شهاب الدّين أبي عبد الله)، **معجم البلدان**، مج03، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.
- المراكشي (ابن عذارى)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج01، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983.
- بوطبة (محفوظ)، **أطلس العمارة العسكرية بالجزائر في العهد العثماني**، أطروحة دكتوراه، العلوم في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 02، 2017-2018.

- بوطارن (مبارك)، **تطور العمران الإسلامي، مدينتا القيروان وسلجماسة نموذجا**، أطروحة دكتوراه علوم، معهد الآثار، جامعة الجزائر 02، 2005- 2006.
- ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، ج01، القاهرة، مصر، 2001.
- المقريزي (تقي الدين أحمد)، **اتّعاظ الحنفاء**، ج03، القاهرة، مصر، 1996.
- مؤلف مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1979.
- الفاسي (الحسن الوزّان)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر، ج 02، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.
- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972.
- مارمول (كربخال)، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج 02، المعارف الجديدة، المغرب، 1989.
- ابن جبير، **رحلة التّجاني**، الدّار العربية للكتاب، تونس، 1981.

تخطيط المدينة الإسلامية

شروط اختيار الموقع والموضع :

شروط الموقع :

تعتبر عملية اختيار مواقع المدن أوّل مرحلة من مراحل تخطيطها، حيث يشمل الموقع موضع بناء المدينة وإقليمها الواسع الذي يحيط بها، وقد كانت عملية اختياره تتمّ بالتجربة كالمبيت فيه أو عبر القيام بحملة استكشاف بإفاد العارفين إليه حيث يتذوقون مياهه ويختبرون جودة هوائه أو بسؤال أهله .

تعرّض عدد من المفكرين العرب كابن الأزرق وابن أبي زرع وابن الربيع إلى مجموعة من الشروط الأساسية التي يجب توفرها في مواقع إنشاء المدن، فابن الربيع مثلاً حدّدها بستّة شروط وهي << سعة المياه المستعذبة، إمكان الميرة المستمدة، اعتدال المكان وجودة الهواء، القرب من المرعى والاحتطاب، تحصين المنازل من الأعداء والذعّار، أن يحيط بها سواد يعين أهلها .

- **سعة المياه المستعذبة :**

يأتي الماء على رأس شروط اختيار مواقع المدن مع ضرورة وفرته وعذوبته، وفي ذلك رؤية استشرافية لتطور المدينة، فوفرة المياه تضمن مستقبلا حاجيات المدينة المختلفة في حالة تطورها ونمو عمرانها، لذلك يتمّ التركيز على مصادر المياه الوافرة في مقدمتها الأنهار، فقد شيّدت مدينة بغداد العباسية بين نهري الدجلة والفرات ومدينة القاهرة الفاطمية بالقرب من النيل ومدينة فاس الادريسية على جانبي نهر فاس ومدينة تلمسان الحسنية بالضفة الغربية لوادي الصفصاف... الخ، كما أنّ حرص المسلمين على جعل مدنهم بالقرب من هذه المجاري المائية لما لها من أهميّة في تنشيط الكثير من الحرف والصناعات، فقد جاء في كتاب الأنيس المطرب أنّه كان بمدينة فاس في الفترة الموحدية ثلاثة وسبعين حمّامًا، ومن ديار الدّباغة ست وثمانون دارا، وديار الصباغة مئة دار وست عشرة دار، إضافة إلى دور الصباغين

والكوش المعدّة لطبخ الغزل وغيرها من الصناعات والحرف التي تحتاج إلى الماء في مراحلها الإنتاجية، ولمصادر المياه الوفيرة والجارية دور في تشغيل بعض الآلات كالناعورات التي تستعمل في رفع المياه إلى المواضع المرتفعة وفي تشغيل مطاحن الحبوب التي كانت كثيرة بمدن المغرب الأوسط والأقصى، مثل مدينة تلمسان وملیانة وبسكرة وتيهارت ومستغانم وخزرونة ومدينة سجلماسة وفاس .

أما الشق الثاني من الشرط الأول أن يضمن عذوبة المياه لما لذلك من راحة للرعية وتطور المدينة، ونستدل على ذلك بمدينة البصرة التي كان يشتكي أهلها من نقص المياه وملوحتها، حيث كانت تنقل إليها مياه الشرب من الأبلة ما أثّر سلبا على نموها وتطورها .

- **إمكان الميرة المستمدة :**

نقصد بالميرة الغذاء وهي مطلب أساسي في اختيار مواقع المدن، ويتمّ تأمينها بالاعتماد على إقليمها الذي تمارس فيه الأنشطة الفلاحية المختلفة من زراعة وتربية المواشي ومن أمثلة ذلك مدينة تلمسان التي ذكرها ابن حوقل بقوله: << تلمسان مدينة أزلية...، وزراعتها سقي غلاتها عظيمة ومزارع كثيرة >>، وكانت مدينة قسنطينة توفر غذاءها بفضل الأراضي الخصبة الواسعة التي يضمّها إقليمها وهذا ما نستشفه من وصف الجغرافي الادريسي لها بقوله: << وهي مطلّة على فحوص متصلة ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدّة في جميع جهاتها .<<

يتم تأمين الغذاء أيضَا عبر التجارة وذلك بإنشاء المدن بالقرب من الطرق التجارية البرّية والبحرية، وقد كانت المدينة المنوّرة توفّر حاجياتها من الغذاء اعتمادَا على التجارة، حيث تباع في سوقها السلع المجلوبة من الشام ومن ضمن هذه المواد الغذائية نذكر الزيت والشعير والدقيق والسمن والعسل، وينقل إليها أهل مكّة ما وصلهم من أسواق الشرق الأقصى، وإليها تجلب القبائل المقيمة بأريافها كبني سليم المواشي من الإبل والخيل ما يوفّر لسكانها اللّحوم، ومدينة بغداد هي الأخرى كانت تعتمد على التجارة في توفير غذائها وذلك لأهمية موقعها الذي كان يعبره نهري الدجلة والفرات، وقد جاء ذلك في وصف موقعها من طرف "ياقوت الحموي" بقوله: <<أنت يا أمير المؤمنين على الفرات والدجلة، تجيئك بالميرة من القرب، وفي

الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان، وتحمل إليك طرائف الهند والصين والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها تامرّا، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة >> .

يمكن للمدن أن تؤمن ميرتها بالطريقتين معا، مثل مدينة جزائر بني مزغنى بالمغرب الأوسط التي أشار إليها الادريسي بقوله: << مدينة الجزائر...، عامرة آهلة وتجاراتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل البربر وزراعتهم الحنطة والشّعير وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم...>> ، وقوله في وصف تيهرت: << بها ناس وجمل من البرابر ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة وبأرضها مزارع وضياع جمّة وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن، وأمّا البقر والغنم فكثيرة بها جدا، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها مباركة....>> ، وقوله في وصف مدينة المسيلة: << وهي عامرة في بسيط من الأرض ولها مزارع ممتدّة أكثر ممّا يحتاج إليه ولأهلها سوائم خيل وأغنام وأبقار وجنّات وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع قطن وقمح وشعير وهذه المدينة أيضا عامرة بالناس والتجار>>

هناك من المدن التي تعتمد على التجارة فقط في تحصيل غذائها مثل مدينة بجاية في الفترة الحفصية وإلى ذلك أشار القسّ الإسباني"مارمول" بقوله: << توجد على مسافة منها غابات كثيفة...، ولا تأتي أرض هذه الجهات بقمح كثيرا ومع ذلك فالسكان في سعة من عيشهم بفضل ما لهم من التجارة مع أوروبا >> .

- **اعتدال المكان وجودة الهواء :**

إنّ لهذا الأخير تأثير على الصحة البدنية والنفسية للإنسان، وعلى مردودية أنشطتهم الممارسة من الزراعة وتربية المواشي، وفي هذا الصدد تذكر الدراسات التاريخية والأثرية والعمرانية أن المسلمين سبق وأن سكنوا المدن التي افتتحوها ببلاد الرافدين كالمدائن وجلولاء والأنبار، إلاّ أنّ مناخها لم يلائمهم وظهرت عليهم علامات الصفرة والتّعب لأن مناخ المنطقة غير صحيّ، وقد امتد هذا التأثير إلى إبلهم التي لم تألف هذه المنطقة لانتشار المسطحات

المائية بها، وكثرة البعوض الذي كان يؤذيها، لذلك انتقلوا إلى موقع البصرة والكوفة الذي يمتاز بجودة هوائه الصحراوي ومناخه الجاف المناسب للعرب وقطعانهم، وتذكر البحوث أيضا أن الخليفة المعتصم عندما كان يبحث عن مكان ينقل إليه عاصمة العباسيين من بغداد لم يرض بإقامتها بمنطقة البردان لسوء هوائها .

كما نقلت إلينا المصادر الجغرافية العربية نصوصا تحمل أوصافا لمدن إسلامية مغربية مختلفة الإنشاء من الناحية الزمنية والمكانية، تؤكّد ما سلف ذكره كمدينة القيروان بإفريقيا وممّا جاء فيها نقلا عن البكري قوله: << مدينة القيروان في بساط من أرض مدين... وساير جوانبها أرضون طيبة كريمة أحسنها الجانب الغربي... وهواء هذا الجانب طيّب صحيح وكان زياد بن خلفون المتطبب إن خرج من القيروان يرد رقادة وحاذى باب أصْرَم رفع العمامة عن رأسه يباشر الهواء برأسه كالمتداوي به لصحته...>> ، وفي مقام آخر من كتابه المسالك والممالك يقول فيه واصفا مدينة رقادة << ليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرقّ سيما ولا أطيب تربية من مدينة رقّادة >>، وهذا الإدريسي يقول في وصف قسنطينة << والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد... وفي كلّ دار منها مطمورتان أو ثلاث أو أربع منقورة في الحجر وكذلك تبقا بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها...>> ، وفي موضع آخر يقول عن مدينة قلعة بني حمّاد: << والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير>>.

-القرب من المرعى والاحتطاب:

لقد ساعدت الطبيعة الجغرافية للبلاد الإسلامية على توفير مساحات واسعة من المرعي، استغلّت في تأمين ثروة حيوانية متنوعة، استعملت في الحروب والتنقل وفي توفير الغذاء من اللّحوم والألبان ومشتقاتها، وفي تأمين المادة الأولية لبعض الصناعات مثل صناعة الدباغة والنّسيج، إضافة إلى امتصاص اليد العاملة من خلال توجيهها الى النّشاط الرّعوي.

بناءَا على ما سبق ذكره حرص المسلمون على ممارسة هذا النشاط بشكل واسع وذلك بجعل مدنهم في أقاليم تتوفر على الكلاء. ومن أمثلة ذلك المدينة المنوّرة التّي كان بها نشاط تربية الحيوانات متنوّعا لأنّ طبيعة بيئتها زراعية ورعوية، حيث تتم فيها تربية الإبل والخيول والغنم،

وشيدت الكوفة في موضع يتوسط بطائح مغمورة بالمياه يكثر فيها القصب سباخ مالحة تكثر فيها الأعشاب الصحراوية المناسبة لنوعية الثروة الحيوانية التّي يحوز عليها أهلها، ولقد أمنت مدن المغرب الإسلامي ثروة حيوانية كبيرة وذلك بفضل جمع مواقعها بين الأراضي الزراعية الخصبة والمراعي الواسعة، نذكر منها مدينة قلعة بني حماد التّي قال عنها الإدريسي أنها: << تصلح فيها السوائم والدواب لأنّها بلاد زرع وخصب >>، ومدينة المسيلة هي الأخرى اشتهرت بتربية الخيل والمواشي ونستشف ذلك من قوله: << ولأهلها سوائم وأغنام وأبقار>>، واشتهر أيضا أهل بادية وجبال مدينة الجزائر بتربية المواشي من البقر والغنم، وكانت لمدينة عنّابة خلال الفترة الحفصية أراض واسعة تزرع وتربّي فيها البقر والثيران والغنم كما جاء في كتاب وصف إفريقيا لحسن الوازن الفاسي، وجاء في كتاب الحلل الموشية أنّ من محاسن مدينة مراكش المرابطة توفر موقعها على المسرح الخصب للجمال والدواب.

أما شرط المحطب فهو الآخر ضروري في إنشاء المدن، وذلك لأهمية هذه المادة في الحياة اليومية للسكان كمادة طاقوية تستعمل في إيقاد مواقد المطابخ، وفي تنشيط بعض الصّناعات والحرف كتسخين أفران الخبز ومواقد الحمامات وأفران الفخّار والجير، أو كمادة أولية في صناعة السفن وتشكيل الأثاث المنزلي والعناصر المعمارية، أو كمادة بناء لتقوية الجدران وتشكيل السقوف وحمل الظلاّت والرّواشين...إلخ. ولتأمين هذه المادة شيّدت مدينتي البصرة والكوفة بمواقع تكثر فيها مادة الحلفاء والقصب استعملت في البناء أوّل الأمر، وأقيمت القيروان الأموية بموقع يكثر به شجر الزيتون الذي كان المحطب الوحيد لسكانها، واشتهرت مدينة فاس بوفرة حطبها وجودته حيث كان يكثر بإقليمها شجر البلوط والأرز هذا الأخير الذي قال عنه ابن أبي زرع أنه: << أطيب خشب الأرض، يعمّر العود منه في سقف البيت ألف سنة لا يعفن ولا يسوس لا يعتريه شيء مالم يصبه الماء >>، ومدينة بجاية دار ملك بني حمّاد هي الأخرى تتوفّر على مادة الخشب بأوديتها وجبالها.

-تحصين المنازل من الأعداء والذّعار :

اعتمد المسلمون في تأمين مدنهم على نوعين من أشكال التحصين، أوّلهما التحصين الطبيعي الذي يكفل حماية المدينة من المخاطر الطبيعية والعدو، وذلك باستغلال المظاهر الطبيعية من الجبال والمرتفعات والبحر والبرك والأودية وذلك باستغلال المظاهر الطبيعية من الجبال والمرتفعات والبحر والبرك والأودية والأنهار في حمايتها، وتدعمّت هذه الأشكال التضاريسية بنظام دفاعي معماري متنوع مثل الأسوار والخنادق.

لقد اتّصفت أغلب المدن الإسلامية بهذه الميزة، فالمدينة المنوّرة كانت محصنة تحصينا طبيعيا من جميع جهاتها، باستثناء الجهة الغربية التي يحميها خندق ويحيط بها بسور، وكان موضع الفسطاط محميا طبيعيا من ثلاث جهات فالنّيل يحميها من الغرب، وهضبة المقطم والجبل الأحمر من الشرق، وبركة الحبشة التي تتكوّن من مجموعة من المستنقعات تحصنها من الجنوب، وكانت بغداد محصنّة بالخنادق المائية الطبيعية لوقوعها بين الأنهار لا يمكن العبور إليها إلاّ على القناطر والجسور، وإذا قطعت هذه الأخيرة لم يكن للعدو مطمعٌ فيها، ومدينة الناصرية هي الأخرى موضعها حصين وفي ذلك قال العبدري: << مدينة حصينة منيعة...، موضوعة أسفل سفح جبل وعر مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما إشراف الطليعة متحصّنة بهما منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب ولا متسع فيها لطاعن وضارب >>، وشيّدت مدينة قلعة بني حمّاد في سند جبل سامي العلو صعب الارتقاء وقد استدار سورها بجميع الجبل المذكور وشغل جانب من مدينة وهران السّهل والجانب الآخر منها جبلا شديد الارتفاع وأحيطت بها أسوار عالية، وبنيت قلعة هوارة على سفح تل بين جبلين عاليين وتحيط بها أسوار مدعّمة بالأبراج، وبإفريقية شيّدت مدينة تونس في سفح جبل ويحميها خندق وسور من خمسة أبواب، كما شيّدت مدينة سوسة الأغلبية على سفح جبل عال وأحيطت بسور منيع من الصّخر ينتهي البحر إليه.

-يحيط بها سواد يعين أهلها :

يقصد ابن الربيع بالسواد في هذا الشرط وفرة الأراضي الزراعية والقرى المأهولة بالسكان، ما يوّفر الغذاء للمدينة من خلال خدمة هذه الأراضي والمبادلات التي تتم مع أريافها التي تقدم لها الدعم والعون أيضا عند الخطر، ومن أمثلتها مدينة الكوفة التي اشترط الخليفة عمر بن الخطاب (ض) أن يكون موضعها بمحاذاة السواد الغني بالمحاصيل الزراعية والعامرة بالسكان، ومدينة بغداد التي كانت تشغل أيضا موضعا من إقليم السواد الذي عرف بكثرة المزروعات الخضراء منذ أصبح ملكا للمسلمين، ومدن بلاد المغرب هي الأخرى لم تخرج عن هذه القاعدة نذكر منها مدينة جزائر بني مزغنى التي اشتهرت بوفرة الأراضي الزراعية والمراعي ولها بادية وجبال تسكنها قبائل ذو حرمة مانعة، وأقيمت مدينة برشك في موضع مجاور لقبائل زتيمة ما جعلها ممتنعة عن أمراء تنس على عهد بني زيان لنجدتهم لها.

شروط اختيار الموضع:

بعد اختيار موقع المدينة تأتي مرحلة تخطيط الموضع، وهو المساحة الطبوغرافية من الموقع، تحضّر لتشيّد عليها المدينة، وقد حدّد ابن الرّبيع اختيارها بثمانية شروط بقوله: << أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب، حتّى يسهل تناوله من غير عَسف، أن يقدر طرقها وشوارعها حتّى تتناسب ولا تضيق، أن يبنى فيها جامعًا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها، أن يقدّر أسواقها بحسب كفايتها ولينال سكانها حوائجهم من قرب، أن نميّز قبائل سكانها، بأن لا يجمع أضدادًا مختلفة متباينة، إن أراد سكانها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه يحيطون به من سائر الجهات، أن يحوطها بسورٍ خوف اغتيال الأعداء لأنّها بجملتها دار واحدة، أن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتّى يكتفوا عن الخروج إلى غيرها >>.

-أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب، حتّى يسهل تناوله من غير عسف:

لقد جعل ابن الربيع نقل الماء وتوزيعه على الرعية على رأس الأولويات التي يجب مراعاتها في تخطيط المدينة، لما في تأخيرها من سلبيات من عُسر في إيصال الماء وتوزيعه على السكان وبالكمّيات المطلوبة، وقد وقعت مدينة السّلام في هذا الإشكال حيث كانت تتزوّد بالماء بطريقة تقليدية بالاعتماد على الروايا، ما نتج عنه صعوبة تلبية حاجيات المدينة من الماء إضافة إلى انتشار الأوساخ بها بسبب استعمال الدواب في نقلها، فتدارك الخليفة العباسي جعفر المنصور الأمر بمد قناتين إحداهما من نهر دجيل وأخرى من نهر كَرخَايَا، وجرّهما إلى مدينته في عقود وثيقة وكانت كلّ قناة منهما تدخل المدينة وتنفذُ في الشوارع والدروب والأرباض، وتجري صيفًا وشتاءًا لا ينقطع ماؤها.

يتعلّق تحقيق هذا الشرط بنوعية مصدر الماء والتقنيات المستعملة في استخراجه ونقله وتخزينه وتوزيعه من جداول وقنوات وأنابيب وناعورات وقناطر وفقارات ومواجل وصهاريج... الخ، ومن أمثلة وسائل نقل المياه بالمدن الإسلامية جداول الماء أو الأنهار الاصطناعية التي كانت كثيرة ببلاد الرافدين، نذكر منها نهر الآبلة بالبصرة ونهر الإسحاقي بسامراء ونهر الجعفري بالمتوكلية، ومن الطرق التي كانت تعتمد عليها مدينة مرّاكش المرابطية لاستخراج والتزوّد بالماء الفقارة، أمّا وسائل التخزين هي الأخرى كثيرة مثل المواجل أو البِرك التي استعملها المسلمون بإفريقية بكثرة لتجميع مياه الأمطار والعيون مثل القيروان والعبّاسية ورقادة وتونس على عهد الأغالبة، وبالمهدية الفاطمية التي أحصى بها البكري ثلاث مائة وستون ماجلاً، ومن أمثلة وسائل التخزين أيضا الصّهاريج التي كانت كثيرة الاستعمال ببلاد المغرب الأوسط بمدن قسنطينة وقلعة بني حمّاد وبتلمسان على عهد بني زيّان.

كما تتوقف نجاح عملية إمداد المدن بالماء على الطبيعة التضاريسية لموضع التشييد، لذلك يستحب بناء المدن على أرضيات منحدرة تسهل من نقل وتوزيع الماء بالاستفادة من الانحدار الذي يتوفر عليه موضع المدينة، إضافة إلى مزايا أخرى كسهولة صرف المياه القذرة ما يجنّب

اختلاطها بالمياه الصالحة للشرب مقارنة بالمواضع المنبسطة التي تعاني مدنها من ظاهرة صعود المياه، كما لا نغفل أهمية هذه الميزة في حماية المدينة من الفيضانات وتأثيرها الإيجابي على النظام الدفاعي المعماري لها.

- أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق:

أظهر المفكرون المسلمون مرة أخرى رؤيتهم الاستشرافية في تطور المدينة، وذلك بالحرص على تحديد مقاسات شوارع المدينة وضبطها بنصوص تشريعية مستمدة من الكتاب والسنّة حتّى لا يتمّ التعدّي عليها وفي ذلك حماية لمستخدميها، وقد أجمعت الدّراسات على أنّ مقاييس الشوارع بالمدينة الإسلامية تكون بالتدرّج بالانتقال من الشوارع الرئيسية إلى الشوارع الثانوية ومنها إلى الشوارع الغير النافذة، إلاّ أنّ مقاييسها تختلف من مدينة إلى أخرى حسب أهميتها وموضع تشييدها من حيث اتساعه وضيقه إضافة إلى الكثافة السكانية والحركة العمرانية ونوعية المناخ السائد بها، فقد جاءت شوارع الفسطاط ضيّقة وشوارع البصرة مقبولة الاتساع في حين شوارع سامراء والجعفرية واسعة جدّا حيث كان عرض شارعها الأعظم يقدر بمائتي ذراع.

- أن يبني فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها:

إنّ الغاية من إنشاء المدن من منظور الإسلام هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، ومن هذا المنطلق حرص المسلمون على إقامة بنايات يتعبدون فيها وفي مقدمتها المساجد، هذه البناية الدينية التي اقترن إنشاءها بتشييد المدن أسوةً بالمسجد النبوي الشريف الذي يعتبر أوّل لبنة أقيمت بالمدينة المنوّرة على عهد سيّدنا النبيّ محمّد (ص)، حيث كان يحتل موضعًا وسطا منها، وظلّ هذا التقليد ثابتا بالمدن المبكرة كالبصرة والكوفة والفسطاط ودمشق والقيروان وواسط وبغداد، وبمدن الدول المستقلة مثل مراكش المرابطية بالمغرب الأقصى، وفي ذلك توحيد للمركز الديني للمدينة وليسهل التعرّف عليه ويكون قريبا من كل موضع في المدينة.

منذ القرن الثالث الهجري/ التسع للميلاد، تحوّل مفهوم وسطية المسجد الجامع في كثير من المدن الإسلامية من مركزها المعماري إلى مركزها الاجتماعي حيث أكبر التجمعات السكانية أين توجد الأسواق والأحياء السكنية، ومن أمثلة هذه المدن سامراء العباسية والقاهرة العبيدية.

استعان المسلمون أيضا في تقريب المساجد إلى السكان بالإكثار من مساجد الصلوات الخمس بالأحياء السكنية، فقد كانت بالمدينة المنورة على عهد رسول الله (ص) تسعة مساجد، وضمت خطط الفسطاط مسجدا أو أكثر.

- أن يقدّر أسواقها بحسب كفايتها ولينال سكانها حوائجهم من قرب:

تعتبر الأسواق من المرافق العامة الرئيسية المشكّلة لعمران المدن الإسلامية، أنشأها المسلمون وفق معايير مختلفة الغاية منها جلب المنفعة ودفع الضرر أسوة بسوق المدينة المنورة، الذي اختار له النبيّ (ص) المكان المناسب حيث كان يشغل فضاءًا مكشوفا بمنطقة المناخة غرب المسجد النبوي بعيدا عن الأحياء السكنية، وفي هذا رؤية مستقبلية لنمو المدينة، ذلك أنّ جعل السوق في مكان واسع ومفتوح يجعل دخول القوافل التجارية إليه من جميع المسالك سهلا، ويمكن أن يستوعب مع مرور الزمن العدد المتزايد من التجار الذين يقصدونه مع إبلهم فيجعل الحركة فيه سهلة، كما أنّ اختيار السوق بعيدا عن الدّور السكنية يحفظها من ضوضاء السوق، ومن الروائح الكريهة المنبعثة من بعض النشاطات التجارية.

أنشأت الأسواق بالبصرة والكوفة والفسطاط على هذه الطريقة، لتصبح بداية من العهد الأموي أكثر تطورا من الناحية المعمارية والتنظيمية، ففي هذه الفترة شهدت أسواق المدن الإسلامية ما يعرف بالتخصص ومن المدن التي جسّدت بها هذه الفكرة مدينة واسط، حافظت المدن العباسية من بعدها على هذه الطريقة ومن أمثلتها مدينة بغداد وسامراء، هذه الأخيرة التي اختط المعتصم أسواقها حول المسجد الجامع، وَوُسِعت صفوفها، وجعلت كلّ تجارة منفردة،

وكل قوم على حدّتهم وانتقل هذا التأثير أيضا إلى مدن مصر حيث أنشأ أحمد ابن طولون أسواق مدينة القطائع على هيئة أسواق بغداد وسامراء، وسميت أسواقها فقيل سوق العياريين وكان يجمع العطارين والبزازين وسوق الفاميين وكان يجمع الجزاريين والبقاليين والشوائيين وسوق الطباخيين ويجمع الصيارف والخبّازيين والحلوانيين، كما أفرد سوقا حسنا لكل صنف من جميع الصنائع.

لم يبقً هذا التنظيم حبيس مدن المشرق الإسلامي بل امتد إلى مدن كثيرة من بلاد إفريقية والمغرب خلال هذه الفترة المتقدمة من الحكم الإسلامي لها، نذكر منها مدينة تونس وصفاقص وسوسة وتيهرت وسجلماسة... الخ.

نظرا لنجاعة هذا التنظيم الذي من أهمّ مزياه الرفع من الإنتاج المحلّي كمّا ونوعا، ويُسر حصول المستهلك على حاجياته، ظلّ متوارثا بالمدن الإسلامية إلى نهاية الفترة الوسطية، ومن أمثلتها ببلاد المغرب مدينة قسنطينة الحفصية التي قال حسن الوزّان الفاسي عن أسواقها أنّها كانت كثيرة حسنة التنظيم، بحيث أنّ جميع الحرف فيها مفصول عن بعضها.

- أن نميّز قبائل سكانها بأن لا يجمع أضدادا مختلفة متباينة:

إنّ تركيبة المجتمع العربي والظروف الأمنية التي كانت تعيشها الدولة الإسلامية الفتية من الأسباب التي جعلت الرسول (ص) يوزّع القبائل التي حلّت بالمدينة على أساس القرابة القبلية والأسرية، وعلى هذه الطريقة قسّمت مدن الخلافة الراشدة كالبصرة التي ضمّت أخماسا، خمس بني تميم في الجنوب الغربي، وخمس أهل العالية، وخمس بكر بن وائل جنوب المسجد الجامع، وخمس عبد القيس في شمال المدينة، وخمس الأزد في الجنوب الشرقي لها.

تواصل هذا التقليد في المدن الإسلامية ومن نماذجها مدينة بغداد التي قسّم المنصور خططها على أصحابه فعمّروها وسميت بأسمائهم، وكذلك مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية بمصر، حيث أقطع أحمد ابن طولون كلّ جماعة من أتباعه بالمدينة قطيعة سميت

باسم سكانها، فكانت للنّوبة قطيعة، وللرّوم قطيعة وللقراشين قطيعة، وببلاد المغرب ذكر ابن أبي زرع أنّ سيّدنا إدريس (ض) عندما أتمّ بناء مدينة فاس عاصمة الأدارسة وأدار السور بها ورتّب أبوابها أنزل القبائل كلّ قبيلة بناحية، فنزلت العرب القيسية من باب أفريقية إلى باب الحديد، ونزلت الأزد على حدّتهم، ونزل اليحصبيون على حدّة القيسية من الجهة الأخرى، ونزلت صنهاجة ولمتونة و مصمودة والشيخان كل قبيلة بناحيتها.

إن اهتداء المسلمين إلى هذا الإجراء له انعكاسات تنظيمية وأمنية هامة، فالحفاظ على العصبية القبلية في تشكيل خطط المدينة الإسلامية له دور اجتماعي يتمثل في سهولة وسرعة التكيّف الاجتماعي، ويسر تنظيمهم ونقل انشغالاتهم إلى السلطة الحاكمة عبر ممثليهم الذين يلقون الإجماع والاحترام بينهم، إضافة إلى تجنّب الصّراعات القبلية المحتملة في حالة الجمع بين أضداد مختلفة في خطة واحدة، وقد ثبت ذلك في مدينة الفسطاط التي من عيوبها أنّ خططها كانت تجمع قبائلا متنافرة وشيعًا متضادة ما جعلها تعرف صراعات كثيرة.

- إن أراد سكانها فليسكن أفسح أطرافها وأن يجعل خواصه يحيطون به من سائر الجهات:

عند تأسيس الدولة المحمدية كان المسجد النبوي يجمع بين السلطة الدينية والسياسية، ومع توسع الدولة بداية من عهد الفتوحات على عهد الخلفاء الراشدين، كان لزامًا على المسلمين تأسيس مدن يتخذون منها قواعد عسكرية وولايات للمقاطعات والأقاليم المفتوحة ولأداء هذه المهمة أقيمت بها دور الإمارة كبناية قائمة بذاتها، إلاّ أنها ظلّت ملازمة لعمارة المسجد بمركز المدينة ومن أمثلتها مدينة البصرة والكوفة خلال الخلافة الراشدة ومدينة القيروان الأموية وبغداد العباسية والمهدية الفاطمية وتلمسان ومرّاكش المرابطية.

تحرّرت بداية من القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي المدن الإسلامية من هذا التقليد المعماري، حيث أصبحت دور الإمارة أو قصور الخلافة تقام على أطرف المدينة وبجانبها الدواوين والإقامات الملكية المختلفة، بعيدة عن المساجد الجامعة والتجمعات السكنية والأسواق،

والهدف من هذا الإجراء عدم إزعاج الرعية وتوفير الأمن للسلطة الحاكمة، ومن نماذج هذه المدن سامراء العباسية والقاهرة العبيدية وتلمسان الزيانية.

اتخذت مقرات الحكم ببلاد المغرب اسم القصبة والتي تعني القلعة السلطانية وتتخذ في أغلب الأحيان مواضعًا مرتفعة بأطراف المدينة مثل القصبة الموحدية بفاس وبمدينة هنين، والقصبة الحفصية بتونس وقسنطينة، كما يمكن أن تكون قصور الحكم مستقلة بالكامل عن المدينة مثل القصبة المرابطية والمدينة البيضاء المرينية بفاس والقصبة الحفصية بمدينة عنابة.

- أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنّها بجملتها دار واحدة:

إنّ المتتبع لتاريخ المدن الإسلامية يلاحظ أنّها تكاد لا تخلوا من عنصر الأسوار إلاّ نادرا، ويعتبر السور من أهم عناصر تخطيط المدينة الإسلامية، وكثيرا ما اقترن اسمه بالعناصر الرئيسية المشكلة لها من المسجد والسوق ودار الإمارة، وقد وقفنا عند ذلك في مواضع لا يمكن حصرها بكتب الرحالة والجغرافيين العرب، كصورة الأرض لإبن حوقل والمسالك والممالك للبكري ونزهة المشتاق للإدريسي ورحلة التّجاني، وماء الموائد للعبدري.

إنّ اعتماد المسلمين على نظام الأسوار الذي خلت منه مدن الخلافة الراشدة، جاء لتوفير الحماية للأهالي وللأنظمة الحاكمة من الأخطار الداخلية والخارجية، إضافة إلى حماية اقتصاد المدن من التّهريب والتّهرب الضريبي، وقد تعزّز هذا المظهر العمراني العسكري بأنظمة دفاعية إضافية حسب الحاجة ونقاط الضعف التي يتوفر عليها موقع أو موضع المدينة، وذلك بحفر الخنادق وإقامة الجسور وتشييد القلاع والبروج والرّباطات إضافة إلى عناصر معمارية دفاعية متنوعة ملحقة بهيكل السّور.

لدينا أمثلة كثيرة تبيّن مدى حرص المسلمين على تحصين مدنهم عبر فترات مختلفة، فقد حصّنت مدينة الكوفة على عهد الخليفة جعفر المنصور بسور وخندق، وكانت عاصمة

دولته الزَّوْرَاءُ أيضًا محاطة بخندق واسع وبثلاثة أسوار، وجعل المنصور لتلك الأسوار أربعة أبواب متقابلة فسُمي الباب الشمالي الغربي بباب الشّام والباب الجنوبي الغربي بباب الكوفة، والباب الجنوبي الشرقي بباب البصرة والباب الشمالي الشرقي بباب خرسان، وبمصر شيّد الفاطميون مدينة القاهرة وأحاطوها بسور على هيئة مربع، طول كلّ ضلع من أضلاعه حوالي 1200م، وكان هذا السور من السمك بحيث يستطيع أن يمر فوقه فارسان جنبا إلى جنب، وكان له ثمانية أبواب إثنان في السور الشمالي هما باب الفُتوح وباب النصر، وباب زويلة وباب الفرج في السور الجنوبي، وباب البرقية وباب المحروق في السور الشرقي، وباب القنطرة وباب السعادة في السور الغربي، وببلاد إفريقية شيّد محمّد ابن الأشعث سنة مائة وأربع وأربعين حول مدينة القيروان سورًا من الطوب سمكه حوالي خمسة أمتار، وله مجموعة من المداخل أحدهم بين القبلة والمغرب وبين القبلة والشرق باب أبي الرّبيع وفي شرقيه باب عبد الله وباب نافع وفي جوفيه باب تونس وفي غربيه باب أصرم وباب سلم، وأحاط عبيد الله المهدي عاصمته المهدية بسور من الحجارة وجعل له بابان، وكان لمدينة قلعة بني حمّاد بالمغرب الأوسط سور من الحجارة يقدّر محيطه حوالي 7 كلم ويتراوح سمكه ما بين 1,20 و 1,60 م، فتحت به ثلاثة أبواب، باب الأقواس وباب جراوة وباب الجنان، كما كان للناصرية على نفس العهد سور يطوقها بامتداد يفوق 5000م، ويتراوح ارتفاعه ما بين 4 و6م، وتدعّمه أبراج حائطية مستطيلة الشكل، على هيئة أبراج العديد من مدن المغرب الأوسط مثل تنس وتلمسان والمنصورة، وفتحت في هيكله عددا من الأبواب نذكر منها، باب البحر وباب السادات وباب أمسيون، وباب البنود وباب اللّوز وباب المرقوم وباب دار الصناعة، وذكر "جورج مارسيه" في دراسة له حول مدينة هنين أنّها مسوّرة بسور من الطّابية سمكه 2م، وتدعمّه أبراج حائطية مربعة الشكل وتتخلّله ثلاثة أو أربعة أبواب من ضمنها باب البحر، وبمقربة من مدينة تلمسان عاصمة بني زيّان شيّد السلطان المريني يوسف بن عبد الحق مدينة المنصورة، وفي إشارة إليها من طرف القسّ الفرنسي " برجيس " و الأخوان مارسيه " ذكروا أنّ المدينة يحيط بها سور من الطابية سمكه 1,50م، ويدعّمه ثمانون برجا حائطيا مربع الشكل، وفتحت به ستة أبواب، وبنفس الطريقة

تحصّنت مدن المغرب الأقصى ومن نماذجها مدينة مرّاكش التي حصّنها الأمير المرابطي" علي بن يوسف بن تاشفين" بسور في غاية القوّة والمتانة مبني بالطّابية وفتحت به أربعة وعشرون بابا.

- أن ينقل إليها أهل العلم والصّنائع بقدر الحاجة لسكانها حتّى يكتفوا عن الخروج إلى غيرها:

إنّ عملية التّحضير لإنشاء المدن تقتضي توفير اليد العاملة المختلفة لإنجاز هذه المهمّة، إضافة إلى الاستفادة من الخبرة الحرفية والصّناعية مستقبلاً في تغطية متطلّبات المدينة المختلفة وتوجيه الفائض إلى الأسواق الإقليمية والدّولية، ما يساهم في تطوير اقتصادها بفضل رفع عائداتها المالية، التي ينتج عنها بالضرورة تطور العمارة والعمران.

لقد أظهرت المصادر والدراسات التي لها علاقة بالعمارة والعمران أنّ المدن الإسلامية التي أقيمت بمشارق العالم الإسلامي ومغربه لم تَحُد عن هذه القاعدة، فعندما همّ الخليفة المنصور إلى بناء بغداد حَشَدَ لهذه العملية مائة ألف عامل من أصحاب المهن والصّناعات من بين العرب والعجم، حيث استقدم إليها المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذراع والمساحة وقسمة الأرضين ثمّ أحضر الفعلة والصنّاع من النجارين والحفّارين والحدّادين وغيرهم، والخليفة المعتصم أيضا عند إقدامه إلى بناء سامراء كتب في أشخاص الفعلة والبنّائيين وأهل المهن من الحدّادين والنّجارين وسائر الصّناعات، وفي حمل السّاج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما ولاها من بغداد، وسائر المواد من أنطاكية، و من سائر سواحل الشّام، وفي حمل عملة الرّخام، وفرش الرّخام فأقيمت باللاّذقية وغيرها دور صناعة الرّخام، وببلاد المغرب الأوسط استقدم الأمير "حمّاد بن بلكين" إلى القلعة سكان مدينة المسيلة ومدينة سوق حمزة، ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها، فتمّ بناؤها وتمصيرها، واستقدم النّاصر بن علاء الناس لبناء بجاية ألاف العمّال، وقد كان لنقل الصنّاع والحرفيين من الأندلس إلى مدينة تلمسان على عهد السلطان الزياني" أبي حمو موسى الأول " وابنه " أبو تاشفين عبد الرحمان

" سَببا في نهوض حركة التعمير بها، وكذلك مدينة مراكش التي نقل إليها " الأمير يوسف بن تاشفين " مهندسين ممتازين وصنّاع ماهرين لبنائها، وأولى اهتمامًا بالغًا بالتنمية الاقتصادية بفاس واستعان في ذلك بالخبرة الأندلسية وذلك بنقل حرفيي وصنّاع قرطبة إليها.

المصادر والمراجع:

. عثمان (محمد عبد الستار)، **المدينة الإسلامية**، عالم المعرفة، الكويت، 1988.

. إبن أبي الربيع (شهاب الدين أحمد)، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تحقيق، عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1996.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. أبو القاسم بن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

. البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

. بوطارن (مبارك)، **طور العمران الإسلامي مدينتا القيروان وسجلماسة نموذجا**، دكتوراه العلوم في الأثار الإسلامية، معهد الأثار، جامعة الجزائر، 2005 – 2006.

. الإدريسي (الإدريسي)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.

. ياقوت الحموي (شهاب الدين)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977.

. كربخال (مارمول)، **إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي وآخرون، ج.02، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1984.

. أحمد عبد الرزاق (أحمد)، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، ط.01، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، 2002.

. الوزان (الحسن بن محمد الفاسي)، **وصف إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 02، ط. 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

. الزركشي، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار و عبد القادر زمامة، ط.01، دار الراشد الحديثة، المغرب، 1979.

. روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

. إبن خلدون (عبد الحمان)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د.ت.

. العبدري (محمد البلنسي) ، **الرحلة المغربية**، تقديم، سعد بوفلالة، ط.01، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.

. التجاني (أبو محمد عبد الله)، **رحلة التجاني**، الدار العربية للكتاب، ليبيا . تونس، 1981.

. الهيتي (صبري فارس) ، " تخطيط مدينة بغداد "، مجلة الموارد، مج. 08، العدد 04، العراق، 1979.

. عبد السلام رؤوف (عماد) ، " تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد "، مجلة الموارد، مج. 08، العدد 04، العراق، 1979.

. مارسي (وليم وجورج)، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تقديم وترجمة، مراد بلعيد وآخرون، ط. 01، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

. وزيري (يحيى)، **العمران والبنيان في منظور الإسلام**، ط.01، روافد، الكويت، 2008.

. بوطبة (محفوظ)، **أطلس العمارة العسكرية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المصادر المادية والكتابية**، دكتوراه العلوم في الأثار الإسلامية، معهد الأثار، جامعة الجزائر، 2017-2018.

. دحدوح (عبد القادر)، **مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، دكتوراه علوم في الأثار الإسلامية**، معهد الأثار، جامعة الجزائر، 2009-2010.

. التنسي (محمد بن عبد الله)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق، محمود آغا بو عياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.

- Marcais (G.) ; << Recherches d archeologie musulmane, Honain >>, in : revue africaine, N337, Annee 1928.pp.333-350.
- Berges ; **Tlemcen ancienne capitale du Royaume de se Nom**, Paris, 1859.
- Marcais (W. et G.) ; **les moniments arabes de tlemcen**, Paris, 1859.
- R. de Feraud (Ch.) ; << histoire des villes de province de Constantine >>, in : constantine, N 03, Annee 1869.

الوحدات الاقتصادية

نشأة الأسواق

يمتد تاريخ ظهور السوق في المدينة الإسلامية الى عهد الرسول محمد صلى الله عليه و سلم بالمدينة المنوّرة، حيث قام باختيار بقيع الزبير المجاور للمسجد كموقع للسوق، و لما اعترض عليه كعب بن الأشرف نقله خير الخلق الى موقع اخر يعرف بالمناخة.

كانت سوق المدينة في هذه الفترة عبارة عن ساحة خالية من البناء و على هياتها كانت أسواق مدن الامصار كالبصرة و الكوفة بالعراق والفسطاط بمصر في بداية أمرها، حيث أقاموها في المناطق المحيطة أو القريبة من المسجد، و اكتفوا باستعمال ظلات من الحصير لحماية التجار و سلعهم من حرارة الشمس.

ظلّت سوق المدينة المنوّرة على طبيعتها دونما بناء إلى عهد معاوية بن أبي سفيان الذي قام بأعمال بناء فيها، و بهذه الخطوة مهّد لعمليات بناء أخرى تمت بمدينة الفسطاط حيث شيدت مجموعة من القيساريات على عهد الخليفة عبد المالك بن مروان.

تواصلت عمليات بناء الأسواق على عد الخليفة هشام بن عبد الملك، فقد أصبحت أكثر انتشارا و تنظيما، و يعود له الفضل في ابتكار ما يعرف بنظام التخصص في الأسواق، حيث حدّد موضعا لكل مجموعة من البائعين المتخصّصين في تجارة معيّنة، و قد شملت هذه المشاريع كل من المدينة المنوّرة و البصرة و الكوفة و الفسطاط و القيروان.

لما قامت الخلافة العباسية أصبح هذا التنظيم التجاري تقليدا متوارثا في المدن الإسلامية، ففي مدينة بغداد أمر الخليفة المنصور بتحضير مخطط مسبق لأسواقها، وأفرد لتجار كل سلعة جانبا خاصا بهم، وامتدّ ذلك الى مدينة سامراء التي أقيمت أسواقها حول جامعها الكبير وصنفت تجارتها أصنافا مستقلّة على غرار مدينة بغداد.

استمرت عملية انشاء الأسواق وتنظيمها خلال الحكم الفاطمي والأيوبي حيث بلغ مجموعها بمدينة القاهرة ثمانية عشر سوقا، ليرتفع عددها في الفترة المملوكية الى أكثر من خمسين سوقا و سويقة بما فيها الأسواق التي كانت قائمة بالمدينة خلال الفترة السّابقة.

لم تحد بلاد المغرب عن فكرة إنشاء الأسواق بجوار المسجد الجامع، حيث تجسّدت في مدينة القيروان اين كانت سوقها المسقوفة مجاورة لجامعها الكبير، تعرضت للهدم و اعيد بناؤها سنة مائة و خمسة للهجرة تاريخ اعتلاء هشام بن عبد الملك عرش الخلافة الأموية ولما قامت الدولة الأغلبية شيّد امراءها مدنا جديدة بإفريقية و ارفقوها بهذا النوع من العمائر، فقد نقل لنا البكري في كتابه المسالك و الممالك معلومات تفيد أنّ مجمل ما شيداه الاميران إبراهيم ابن الاغلب و إبراهيم بن أحمد بمدينة العباسية و رقّادة على التوالي الفنادق و الأسواق الكثيرة، إضافة الى أسواق مدينة تونس لنفس العهد بحيث يعود تاريخها الى بداية القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع ميلادي، كسوق النّسيج بجوار جامع الزيتونة.

تواصلت عملية إنشاء الأسواق خلال القرن الرابع و الخامس الهجري الموافق للقرن العاشر و الحادي عشر ميلادي مع تسجيل تباين في اعدادها حسب أهمية المدن و الظروف الأمنية السائدة بالمنطقة أنداك، فقد جاء في كتب الجغرافيين و بعض الدّراسات التاريخية أنّه كان بمدن المغرب أسواقا و عمائر تجارية كثيرة من خانات و فنادق، نذكر منها مدينة المهدية و صبرة المنصورية التي تراجعت مكانة القيروان الاقتصادية لصالحها خلال الفترة الفاطمية لتستعيد عافيتها خلال الحكم الزّري على عهد المعز بن باديس، و من أسواقها خلال هذه الفترة سوق الكتانين و سوق الغزل و سوق الزجاجين و سوق العطارين، إضافة الى أسواق مدن أخرى كسوسة و تونس و جزائر بني مزغناي و أشير وفاس و مرّاكش و غيرها من المدن التي يطول بنا الوقت لذكرها في هذا المقام، وقد حافظت أسواقها على تنظيمها و تصنيفها القائم بالبلاد منذ الفترة الاموية كالأسواق الخاصة بالحياكة بمدينة سوسة على العهد الزّيري، و سوق الدخان و الصابون و الصفر و المغازل بمدينة مراكش المرابطية، و ضمت

مدينة النّاصرية الحمّادية أسواق عديدة مثل سوق باب البحر و سوق الصوافين و سوق البزازين.

لم تفقد أسواق مدن المغرب قيمتها في القرن السادس الهجري الذي عرفت البلاد خلاله حدثا سياسيا هامّا بتوحدها تحت راية المصامدة، و نقف في هذا الملخص عند بعض الحواضر الكبرى كمدينة قسنطينة و بجاية و تلمسان ومراكش و فاس، و قد كانت محطات تجاريّة هامّة تصل بين الطرق التجارية الداخلية و الخارجيّة، و مدينة فاس خلال هذا العهد قبلة بلاد المغرب علما و مالا و عبّر عبد الواحد المراكشي عن ذلك بقوله " و لا اعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها الاّ ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس"، و ما يؤكد قول صاحب كتاب المعجب ما نقله ابن ابي زرع من احصائيات مذهلة للعمائر التجارية و دور صناعة بالمدينة خلال الفترة الموحديّة الى غاية نهاية العقد الثاني من القرن السّابع الهجري في كتابه روض القرطاس، و من ضمن ما ذكر فيه المصريات التي فاق عددها تسعة عشر الف ، و اثنين وثمانين حانوتا، و سبعة و أربعون دارا لصناعة الصّابون و ستة و ثمانون دارا للدّباغة، و أمّا الترابيع المعدّة لصناعة الحياكة فقد فاقت ثلاثة الاف موضعا.

عرفت الأسواق بعد سقوط الدولة الموحديّة انتشارا واسعا ببلاد المغرب بأطرافه الثلاثة، فقد لقيت أسواق مدن افريقية الحفصيّة اهتماما و تنظيما بالغا، حيث كانت تتوزّع بجوار جامع الزّيتونة بمدينة تونس مجموعة من الأسواق المتخصصة على غرار الأسواق القديمة كسوق النّسيج و سوق البلاط (اغلبية) مختصة في بيع الأعشاب و العقاقير، و سوق الفكّة (زيرية) موجّهة لبيع الفواكه الجافّة و سوق الكبابجية مؤرخة بالقرن السادس الهجري كانت تباع فيها في الفترة الحفصية الزّرابي، تضاف اليها الأسواق الحفصية مثل سوق العطارين و سوق الصفارين و سوق القماش و سوق الكتبيين و سوق السكاجين.

كما كانت بمدينة قسنطينة أسواقا كثيرة مصنّفة تصنيفا دقيقا بحيث انّ جميع الحرف فيها مفصول بعضها عن بعض.

شهدت أسواق مدن بني زيان بالمغرب الأوسط تنوعا و تنظيما و نخص منها بالذكر أسواق مدينة هنين و هران و تلمسان هذه الأخيرة التي أشار اليها حسن الوزان الفاسي في قوله " و جميع الصنائع و التجارات بتلمسان موزعة على مختلف السّاحات و الازقة".

و بمدينة فاس دار ملك بني مرين بالمغرب الأقصى شغلت أسواقها مجالا واسعا منها حيث كانت موزّعة بمركز المدينة و على امتداد شوارعها الرئيسية و بالقرب من بعض أبوابها على طريقة أسواق مدينة تونس الحفصيّة، نذكر منها سوق الفواكه الجافه و العطارين و الشماعين و الصفارين و غيرها.

بلغت أسواق مدن المغرب عامّة و أسواق مدينة فاس بصفة خاصة خلال هذه الفترة ذروتها من حيث التنظيم، فقد تجاوزت نظام التخصص العام الذي كان قائما بالأسواق الإسلامية منذ الفترة الاموية و تطور الى تصنيف الحرفة الواحدة الى اكثر من فرع مثل سوق الفخارين الذي كان منقسما الى بائعي الفخار الخشن و الفخار الملون، و بمدينة تونس كانت هناك اسواقا منظمة بهذا الشكل كسوق السكاجين فرع من سوق السرّاحين.

تضاف الى الأسواق السابقة الذكر التي تتمركز بداخل المدينة بجوار مسجدها الجامع و على أطراف شوارعها الرئيسية و بالأحياء السكنية و بالقرب من أبوابها و تقتصر على أنواع من الحرف و الصناعات النّظيفة او النبيلة، أسواقا أسبوعية و صناعات أخرى تتمركز بأطراف المدينة عن أبوابها او خارج أسوارها كسوق الاحد بمدينة القيروان على العهد الزّيري، و سوق الاثنين بمدينة مكناس و سوق الخميس بمدينة فاس خلال الفترة المرينية.

امّا الافران و دور الصناعة ففي كثيرة كانت تتموضع خارج اسوار المدينة مثل افران الجير و الفخّار و دور الصناعة كالدباغة و الصباغة و الطاحونات التي كانت تحتل بدرجة أولى ضفاف الأنهار و الاودية.

-المعايير والعوامل المتحكمة في انشاء وتوزيع الأسواق ودور الصناعة بالمدينة الإسلامية.

انّ المتتبع لتموضع الأسواق و دور الصناعة بالمدينة الإسلامية يلاحظ انّ توزيعها جاء منظّما هادفا بالدرجة الأولى الى دفع الضرر عن افراد المجتمع من جهة و تنشيط الحركة التّجارية من جهة أخرى و ذلك بمراعاة عدّة معايير نذكر منها.

العامل البيئي:

تتحكم العوامل البيئية في تمركز بعض الصناعات خارج المدينة أو في أطرافها و ذلك لاعتبارات اجتماعية تفاديا للصوت المزعج و الرائحة الكريهة، و لتحقيق ذلك أقيمت دور الدباغة و أفران الجير و الفخّار ومقالع الحجارة خارج اسوار مدينة فاس المرينية، و افران القرميد خارج مدينة تلمسان من الناحية الشماليّة حيث باب القرمديين.

كما احتلت دور الصباغة بقرب باب ابي الربيع بالقيروان خلال العهد الزيري و دار الصباغة قرب باب الجزيرة بتونس الحفصيّة و مصابغ مدينة فاس على كل ضفي نهرها و ذلك لسهولة التخلص من النفايات الصناعية.

كانت المذابح بأطراف المدينة قرب أبوابها مثل مذبح الحسينية خارج باب النّصر بالقاهرة و مذبح الناصرية قرب الباب التي تحمل اسمه، و مذبح باب المحروق بفاس.

تضاف الى الحرف و الصناعات السالفة الذكر مهن أخرى ضارة، كصناعة الحدادة بباب الحديد و بحي باب السويقية و سوق الفحامين بباب الجزيرة بمدينة تونس، الى جانب معاصر الزيتون التي تشغل نفس المواضع من المدن كمعاصر باب عجيسة و باب الفتوح بفاس.

تدخل ضمن الأسواق الملوثة أيضا أسواق المواشي والطيور مثل سوق الخميس الذي كانت تباع فيها المواشي وسوق الطيور قرب باب عجيسة بمدينة فاس أو سوق الغنم بباب الغنم وسوق الابل بباب سلم و سوق الدجاج بمدينة القيروان.

عامل الماء :

يعد من أهم العوامل المتحكمة في توزيع الأسواق ونسب انشائها بالمدينة الإسلامية، ولكون الماء مادة أساسية في تنشيط الكثير من الصناعات كالدّباغة والصباغة نجد أنّ معظم دور صناعتها بمدينة فاس تتوزع على ضفة الوادي الكبير خارج أسوار المدينة.

يعتبر الماء أيضا مصدرا طاقويّا يحرّك بعض الآلات المنتجة كالطاحونات التي كانت تقام على مجرى الأنهار و الاودية خاصة في الأماكن المنحدرة منها، و قد تكرر ذكرها في كتب الجغرافيين في مدن المغرب في أكثر من موضع، مثل الطاحونات الموزعة على مجرى نهر فاس، و طاحونات تلمسان على نهر سطفسيف.

العامل الأمني

كانت للظروف الأمنية السائدة بالبلاد الإسلامية أثر كبير في النمو الاقتصادي و المعماري من عدمه، و غالبا ما لحظنا انّ الاستقرار يرافقه الرّقي و الازدهار و الرّخاء بفضل إقبال الصنّاع و الحرفيين على المدن التي تتوفر على المناخ المناسب للعمل من مواد أوّليّة و يد عاملة و أسواق تتم فيها العمليات التجارية و تضمن خدمات للتجار كالمأوى و حفظ السلع دون ان نغفل الإرادة السياسية في خدمة هذا القطاع.

من الانعكاسات السلبية للأوضاع الأمنية على اقتصاد المدن المغربية تراجع مكانة القيروان لحساب صبرة المنصورية خلال الحكم الفاطمي، وفقدت مدينة قلعة بني حمّاد مكانتها التجاريّة تدريجيا لصالح النّاصرية بعد تحويل مقر السلطة السّياسية إليها نتيجة غزو بني هلال لبلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي، و ركود اقتصاد مدينة فاس خلال الفترة الموحديّة بفعل المجاعة و الفتن التي كانت أيّام العادل و المأمون.

للعامل الأمني أيضا دور في توزيع هذه المنشآت بالمدينة امّا باختيار الأماكن الامنة او جعلها في معزل عن المدينة، كجعل أسواق بغداد بربض الكرخ جنوب المدينة و إقامة أسواق المهديّة بربضها المعروف بالزويلة، و جعل أسواق سامراء بجوار جامعها الكبير في عزلة عن قصر الخلافة الذي كان في الطرف الاخر من المدينة.

العامل الدّيني

أشرنا سالفا الى انّ من مقاصد تنظيم الأسواق دفع الضرر عن افراد المجتمع، و طبيعة الضرر يكون امّا جسديا أو نفسيا، لذلك وجب عند إقامة البنايات التجارية مراعاة آداب الشوارع و ذلك بدفع كل الاضرار التي تنتج عن سوء تخطيط هذه البنايات كجعل الدكان مقابلا لباب الجار في الشوارع الثانوية، او بسبب توسيع هذه العمائر على حساب الشوارع بإقامة المساطب في الأرصفة، إضافة الى سوء التخلص من مخلفات هذه البنايات.

طبيعة النشاط التجاري و الصناعي:

هناك من النشاطات الصناعية و التجارية التي تفرض مكان تموضعها بالمدينة، و ذلك امّا لطبيعتها كالصناعات التحويلية و الكماليّة التي تتمثل في المواد الغذائيّة و النّسيج و العطور و الجواهر و غيرها، و تكون بمراكز المدينة بالقرب من المساجد و على جوانب الشوارع أو بالأحياء السّكنيّة و بدرجة أقل عند أبواب المدينة و ذلك لكونها تجارات نظيفة، أو موجّهة لتوفير الحاجيات الضرورية اليوميّة للسكّان و نجدها مثلا على شكل سويقات.

أمّا السبب الاخر مرتبط بالمساحة و توفير المادة الاوليّة للصناعة، ذلك نجد بعض الصناعات مثل أفران الجير و أفران الفخّار و دور الدّباغة و الصناعة الخشبية خارج المدينة لحاجة هذا النّوع من الصناعات إلى مساحات واسعة خلال مراحل الإنتاج، إضافة إلى تقريبها من المادة الأولية، و سنقدم أمثلة عن ذلك من مدينة فاس كجعل افران الآجر قرب مقالع الطين ، و تقريب المدابغ من طاحونات المدابغ التي تؤمّن لها مواد الصباغة المستخلصة طبيعيّا من بعض المواد مثل قشور الرّمان و الزعفران على ضفة الوادي الكبير، إضافة الى جعل هذه الدور قريبة من المذابح لتوفير الجلود لها، و جعل المذابح خارج المدينة لتقريبها من سوق الخميس الذي يوفر لها المواشي، و جعل صناعة خشب هيكل البناء قرب سوق الخشب نواحي باب عجيسة.

نماذج من البنايات التجاريّة:

القيسارية:

لها شكل مربع او مستطيل يتوسطها صحن مكشوف، و تتكوّن من عدد من الاروقة كل رواق منها خاص بصنف معيّن من التجارة، و هي عبارة مستودع عام تستعمل للمعاملات التجاريّة الفرديّة و الجماعيّة و تقيم بها طائفة أو عدّة طوائف من التجّار و قد سجّلت وجودها في مدن المغرب الإسلامي عبر مراحل مختلفة منذ القرن الثاني الهجري، نذكر منها قيسارية القيروان التي تعود الى العهد الزيري و قيسارية الناصرية التي كانت بالقرب من الميناء و قيساريتا مدينة فاس الموحديّة احداهما بعدوة القرويين و الثانية بالعدوة المقابلة لها.

الفندق:

هذا النوع من البنايات التجاريّة كثيرة الاستعمال في المدن المغربيّة حسب ما جاء في كتب الجغرافيين، فمن فنادق الاغالبة نذكر منها فنادق رقادة التي شيّدها الأمير إبراهيم ابن الاغلب ، و فندق فرجون من أعمال الفاطميين بمدينة ميلة، و عرفت ارتفاعا في أعدادها خلال الفترة الزيّرية حيث ذكر الجغرافي البكري أنه كان بمدينة تونس و المنستير وباجة فنادق كثيرة، وبلغت ذروتها بمدينة فاس الموحديّة وبها احصى ابن ابي زرع ما يقارب الاربعمائة فندق، و ظلّت هذه العمائر وفيرة بالمدينة في الفترة المرينية مثل فندق الزبيب و فندق الشماعين و فندق القطانين و فندق الفخّارين و فندق النجّارين.

تلمسان عاصمة بني زيان هي الأخرى سجّلت وجود عدد من الفنادق بها، كفندق الرمّانة و فند ابي علي وفندق الشمّاعين و فندق العبّاد، أمّا الفنادق الحفصية توجد خاصة بالمدن البحريّة التي تتمركز فيها الجاليات الاروبيّة مثل مدينة تونس و بجاية، إضافة الى بعض المدن الداخليّة الهامّة الرابطة بين المناطق الساحليّة و الصحراء مثل مدينة قسنطينة.

عمارة الفنادق موجّهة لإيواء التجّار الأجانب و تخزين البضائع قبل توزيعها على تجار التجزئة و يخصص كل منها لنوع معين من البضائع، أما من الناحية المعماريّة، فهي بنايات واسعة يتوسطها صحن مركزي، و الفندق يتشكل من عدّة طوابق بالإضافة الى المخزن و

الورشة و الإسطبل لإيواء الدواب، أمّا الصحن فله وظائف تجارية كالتخزين المؤقت للسلع أو البيع بالمزاد العلني لسلع غير السلع المخصّصة لها و في أوقات معلومة من اليوم، كفندق الشمّاعين الذي كانت تباع فيه الفواكه الجافة و فندق الزّبيب الذي تباع فيه الجلود بمدينة فاس المرينيّة.

الخانات

كلمة فارسية تعني المنزل الكبير أو الفندق الذي ينزل فيه التجّار ويعرضون في بضائعهم، وهو على نوعين خان المدن وخان القوافل.

الخان من الناحية المعمارية عبارة عن بناء بمدخل واحد به صحن مكشوف ودكاكين ومخازن بالطابق الأرضي والمساكن في الطابق العلوي، وقد شملت هذه البناية العديد من مدن بلاد المغرب خلال الفترة الفاطميّة والزّيريّة، جاء ذكرها في كتاب صورة الأرض لابن حوقل مثل خانات مدينة المهديّة وسبيبة وتاهرت وفاس.

الحانوت:

هي من البنايات الموجّهة للصناعة الحرفيّة الصغيرة ولتجار التجزئة ويعرف كذلك بالدكّان ولا يختلفان إلا في الحجم والوظيفة، فالحانوت هو محل إنتاج وورشة حرفة ما ومقر بيع في ان واحد، أما الدكّان فهو محل عرض البضائع لبيعها.

من الناحية المعماريّة عبارة عن أماكن ضيقة قليلة الارتفاع أشبه ما تكون بالخزانات المقامة داخل الجدران، وتكون في الغالب مرفوقة بمخزن للبضائع أما عن توزيع هذه الحوانيت نجدها في الأحياء الرئيسية التجاريّة والبعض منها يوزّع في أنحاء المدينة.

السويقة:

هي سوق تتكوّن من عدد محدود منت الدكاكين، وكل طائفة لها دكّان أو دكّانين على الأكثر توفر الحاجيات الضروريّة للسكّان من المواد الغذائية والمنتوجات المصنّعة المختلفة، ويكون موضعها بالأحياء السكنيّة هذا ما يوفّر عنهم عناء الخروج الى الأسواق العامّة، ومن

أمثلتها بمدن المغرب السويقة التي تفتح على الربض الشمالي لمدينة تونس ويمتدّ تاريخها الى الفترة الزّيرية وسويقة باب تاطنت بالنّاصريّة بالمغرب الأوسط.

المصادر والمراجع:

. البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

. الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.

. إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. لوطورنو (روجي)، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

. الوزان الفاسي (الحسن بن محمد) ، **وصف إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

. روجي إدريس (الهادي)، **الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقيا في عهد بني زيري من القرن 10 إلى 12م**، ترجمة، حمادي الساحلي، ج.02 ، ط. 01، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992.

. جاد الكريم (ضياء محمد)، **عمارة المنشآت التجارية في القرن التاسع عشر الميلادي**، ط.01، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، 2010.

. بن مامي (محمد الباجي)، " أسواق مدينة تونس "، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية، العدد: 12، المعهد الوطني للتراث، تونس، 1998.

. بن كردة (زهية)، **أسواق مدينة الجزائر من الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني**، رسالة ماجستير في الأثار الإسلامية، معهد الأثار جامعة الجزائر، 1999-2000.

السداسي الثاني

الإطار الجغرافي و التاريخي و الحضاري لبلاد المغرب

الإطار الجغرافي لبلاد المغرب :

إختلف الجغرافيون و المؤرخون العرب في رسم حدود بلاد المغرب، فهناك من أطلق إسم المغرب على إمتداد جغرافي واسع يضم شمال إفريقيا من ديار مصر شرقا إلى الأندلس غربًا، و من أنصار هذا الرّأي الجغرافي المقدسي الذي جعل حدود المغرب من « مصر و برقة إلى السّوس الأقصى و جزيرة صقلية و الأندلس» ، و قد وافقه الرأي الإسطخري بقوله أنّ « بلاد المغرب نصفان يمتدان على بحر الرّوم، نِصف من شرقيه و نصف من غربيه، فأمّا الشرقي فهو بَرقة و أفريقية و تاهرت و طنجة و السوس و زويلة، و ما في أضعاف هذه الأقاليم و أمّا الغربي فهو الأندلس ».

أطلق البعض الآخر كا ابن حوقل و السَّلَاوِي اسم المغرب على إمتداد جغرافي موحّد يضمّ إفريقية و المغرب دون الأندلس، حيث يعتبرون حدّه الشرقي مدينة برقة و حدّه الغربي المدن البحرية المطلّة على المحيط الأطلسي كمدينة آزيلي و طنجة، و يتّجه عبد الواحد المرّاكشي في كتابه " المعجب " إلى نفس الرأي، إلّا أنّ وصفه جاء أكثر تفصيلاً و ذلك بتقسيم هذا الإمتداد الجغرافي إلى قسمين، يعرف الأول باسم " إفريقية" و يمتد من برقة إلى قسنطينة، و القسم الثاني من قسنطينة إلى طنجة تحت إسم " المغرب ".

أما الرأي الأخير، يجعل بلاد المغرب من الحدود الغربية لإفريقية إلى المحيط الأطلسي و يضمّ أيضًا بلاد الأندلس، و يوافق هذا التعريف ما جاء في كتاب " معجم البلدان " لياقوت الحَموي في وصف المغرب بقوله: « بلاد واسعة حدّها من مدينة مليانة و هي آخر حدود إفريقية إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط و تدخل فيه جزيرة الأندلس.

الإطار التاريخي و الحضاري لبلاد المغرب :

تمهيد:

إن إنشغال الخلافة العبّاسية بمحاولة السّيطرة على المخاطر الدّاخلية و الخارجية التي عرفها المشرق الإسلامي، دون الاهتمام بمصالحها ببلاد المغرب، أدى ذلك إلى إستفحال ثورات الخوارج التي سيطرت على القَيروان المركز السياسي و الدّيني و الحضاري لبلاد المغرب في أكثر من مرة، و زاد من تشجيعها نجاح عبد الرحمن الدّاخل في الإستقلال بالأندلس تحت السلطة الأموية.

نتج عن هذه الحركات المناهضة للخلافة العباسية، قيام دولة بني مدرار بسجلماسية سنة 140 هـ، و دولة بني رستم بتاهرت سنة 160 هـ، و دولة الأدراسية بفاس سنة 172هـ، و لتصدي لها قامت الدولة الأغلبية سنة 184 هـ تحت الوصاية العبّاسية.

دولة بني مدرار (140 – 354 هـ / 757 – 965 م):

لمحة تاريخية

قامت على يد أبي القاسم سغون بن واسول المكناسي المعروف بمدرار، و اتخذ من سجلماسة مقرًّا سياسيا و عسكريا لها، حيث شرع في بنائها سنة 138 هـ و بعد سنتين من العمل إكتمل بناؤها، و على عهد اليسع (173هـ – 208هـ) أتم بناءها و اختط بها المصانع والقصور، و توالى أمراء بني مدرار على الحكم بسجلماسة إلى أن تمكن منها الدّاعي الشيعي سنة 296 هـ ، إلّا أنّ الإمارة قامت من جديد بعد ثورة الأهالي و قضائهم على عامل الفاطميين بالمدينة، و قدَّموا على أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار و كاف ذلك سنة 298هـ ، و في سنة 332هـ عرفت الدولة حدثا هامًّا بتولي محمد بن الفتح بن ميمون الحكم و أخذ بمذهب السنّة و قطع علاقاته مع الفاطميين، و استمر حكمه إلى سنة 347 هـ تاريخ إحتلال المدينة من طرف الفاطميين بقيادة جوهر الصّقلي، إلّا أنّ هذا لم يمنع استمرار السلطة السياسية

بسجلماسة في بني مدرار إلى غاية سنة 354هـ، تاريخ سقوط الدولة على عهد المعتز بالله بن محمد بن الفتح بن ميمون بن مدار.

الأنشطة الاقتصادية:

عرفت الحياة الاقتصادية في سجلماسة إزدهارًا، حيث أدّت وفرة المياه إلى إستصلاح الأراضي و غرسها و بذلك التحوّل من البداوة إلى الزراعة و الاستقرار.

من الصناعات التي كان يمتهنها السكان، صناعة النسيج التي كانت تعتمد على القطن الذي ينتج محلّيا، أو عن طريق الإستراد من إشبيلية في إطار المبادلات التجارية مع بلاد الأندلس، و قد إنعكس ذلك على جودة منتوجاتهم التي إشتهرت في بلدان المغرب و المشرق و الأندلس.

كما ساعدت حركة البناء على نشاط عدد من الحرف التي لها علاقة بهذا المجال مثل الحدادة و النّجارة، إضافة إلى صناعات أخرى كصناعة الأحذية و صناعة الحلّي من الذهب و الفضّة في ظلّ وفرة المادة الأوّلية التي كانت تستخرج من مناجم درعة أو بالمناطق المجاورة لسجلماسة أو عن طريق الإستيراد من بلاد السّودان.

الدولة الرستمية (160 – 296هـ / 776 – 909م):

لمحة تاريخية

تعود بوادر ظهورها إلى سنة 140هـ ، يوم بايع أتباع الإباضية أبا الخطاب المعافري إماما عليهم، و تمكنوا بقيادته من الإستيلاء على طرابلس و معظم بلاد المغرب الأدنى بما فيها القيروان التي عين عليها و على من ولاها من المدن عبد الرحمن بن رستم، إلّا أن والي بني العباس محمّد الأشعث تصدى لهذه الحركة و قتل قائدها أبا الخطاب سنة 144هـ، و بهذا تفرق الإباضية في الجبال محتمين بحصونها و قلاعها المنيعة، و في المقابل غادر عبد

الرحمن بن رستم إلى تاهرت بالمغرب الأوسط حيث جمع حوله الإباضية و أسّس دولته هناك سنة 160هـ/776م.

تعاقب على حكم الدّولة عدد من الأئمة الرستميين أبرزهم الإمام أفلح بن عبد الوهّاب الذي بلغت الدولة على عهده ذروتها النّهضة و الإزدهار، إلّا أن إختلاف الكلمة بين السلطة الحاكمة و الرعيّة في آخر عهدها نتج عنها إنتشار الفتن و الإضطرابات و ظهور المؤامرات التي أدت إلى مقتل الإمام أبو حاتم، و زادت الأمور سوءًا بروز الدّعوة الشّيعية على مسرح الأحداث التّي ذاع سيطها بالبلاد خاصة بعد أن تمكنت من دولة الأغالبة المجاورة للرستميين، ما دفع بإمامها اليقظان للإستسلام للعبيديين فقضوا عليه و على دولته سنة 296هـ/909 م.

الأنشطة الاقتصادية:

عرف قطاع الزراعة توسعا و ازدهارًا، و قد ساعد على ذلك خصوبة الأراضي و وفرة المياه، كما ساهم موقعها الذي يتوسط المغرب الأدنى و الأقصى و علاقاتها الحسنة مع بلاد السودان و الأندلس و سجلماسة في جعلها مركزا تجاريا هامًّا ببلاد المغرب.

كانت تعتمد في مبادلاتها التّجارية على طرق بحرية تصل موانئها ببلاد الأندلس، و طرق برية تصلها بالمناطق المجاورة و بمدينة فاس و سجلماسة و ببلاد السودان التي كانت تصدّر إليها المنسوجات الصوفية و الكتانية و الحرير و القوارير الزجاجية، و الأواني الخزفية و الأصواف و التحف المعدنية و العطور، و في المقابل تستورد من السودان و غانة الذهب الخام و العاج و ريش النّعام و جلود الحيوانات، و توجّه هذه المواد لتلبية متطلبات الصنّاعة المحلية و يصدر جزء منها إلى بلاد السودان.

أما من النّاحية الصناعية، فقد استفادت الدولة الرستمية من الخبرة التي نقلها الوافدين إليها من أرباب المهن و الحرف من الأمصار و الأقطار المختلفة الذين استوطنوا تاهرت و المدن الأخرى، دون أن نغفل وفرة المادة الأوّلية، هذه الظروف ساهمت في بروز عدد من الصناعات

كالصناعة النسيجية و الجلود و العطور و صناعة الحلي من ذهب و فضة و الصناعات المعدنية و صناعة الفخار...الخ.

العمارة و العمران:

تنوعت البنايات بمدينة تاهرت حاضرة بني رستم من دور الإمارة و القصور و المباني و الضّياع و المنشآت العامّة من فنادق و حمامات و مساجد، و يعتبر عصر الإمام أفلح بن عبد الوهاب من العهود الزّاهدة في هذه الدولة، بحيث استبحرت خلال مدّة حكمه العمارة بمختلف مظاهرها ، و لم يقتصر هذا المظهر الحضاري على عاصمة الدولة فقط بل إمتدّ إلى مدن أخرى، مثل مدينة وارْجِلان و سَدْراته على مقربة منها خاصة مع إحتلالها مواضعًا هامّة من الطرق التجارية الرابطة بين موانئ الدّولة في الشمال بالمدن الصحراوية كسجلماسة عاصمة بني مدرار وببلاد السودان و غانة.

الحياة الفكرية و الثقافية:

إزدهرت الحياة العلمية في تاهرت إزدهارًا كبيرًا، فقد كان أئمة الدولة من أهل العلم كرّسوا حياتهم للعلوم و نشرها، و شاركوا العلماء في تبليغ العلم بتوليهم التدريس في جامع تاهرت، و إهتموا بالحركة العلمية أيضا بتشجيع التأليف باستعمال اللّغة العربية، و بتشجيع الترجمة خاصة على عهد الإمام أفلح الذي ترجمت على عهده الكتب من مختلف اللغات إلى اللغة العربية كاليونانية و الهندية و الرومانية و الفارسية، و من مظاهر الحركة الفكرية بالدولة المناظرات العامة التي كانت تقام في تاهرت و شملت العلوم الدينية و العقلية و النقلية على حد سواء، و إنشاء المكتبات حيث اشتهرت العاصمة بمكتبتها التي كانت تضم نحوا من 300 ألف مجلّد، حرص الإمام أفلح على شرائها من العراق.

الدولة الإدريسية (172 – 375هـ):

لمحة تاريخية

تمت مبايعة سيدنا إدريس بن عبد الله سنة 172هـ، و شرع في ترسيخ أركان دولته و ذلك بإنشاء عاصمة لدولته تعرف بفاس بالمغرب الأقصى و قام أيضا بإقرار النّظم المالية و الإدارية بحيث اتبع أصول الشريعة فيما يتعلق بالجبايات، و قسم الدّولة إلى عمالات، أما عن تركيبة جيشه فكان يتألف من سائر قبائل البربر من زناتة و أوروبة و صنهاجة و هواوة...الخ، ووجه هذه الطاقات البشرية إلى الإستلاء على مناطق ذات أهمية إستراتيجية و إقتصادية.

أثار هذا التوسع شرقا مخاوف الخلافة العبّاسية خاصة بعد استيلائه على تلمسان باب إفريقية، ما جعل الخليفة هارون الرشيد يتخلص منه على يد أحد عملائه يعرف " بالشماخ " و كان ذلك سنة 177هـ، إلا أن ذلك لم يمتنع من صمود الدولة ضدّ التآمر العباسي الأغلبي إلى أن استلم ابنه ادريس الثاني الحكم سنة 188هـ.

مرت الدولة على إمتداد ما يقارب القرنين من الزمن من حكمها لبلاد المغرب بمرحلتين، شملت المرحلة الأولى عهود إدريس الأول و إدريس الثاني و ابنه محمّد ، و قد تميزت هذه الفترة بقوة الدولة في جهاز سياسي و نظام إداري و جبائي محكم و جيش قوي و عاصمة مركزية تسير كافة أقاليم الدولة.

أمّا المرحلة الثانية، تشمل عهود خلفاء محمد بن ادريس الثاني، و تميّزت بضعف السلطة و باضمحلال النظم و انقسام الجيوش، و شهدت خلالها مزيدا من الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة بعد تقسيم الدولة إلى كيانات إقطاعية بين الإخوة و الأبناء و محاولة كلّ أمير أن يوسع سلطته على حساب أمراء فاس من جهة و على جيرانه من جهة أخرى، و قد فتح ذلك بابا للأطماع الأجنبية الأندلسية و الفاطمية هذه الأخيرة التي أنهت سلطة الأدارسة بالمغرب سنة 375هـ.

الأنشطة الاقتصادية :

تمكّن الأدارسة من النّهوض بالإقتصاد ببلاد المغرب الذي عرف ركودًا على عهد العباسيين، و ذلك بالإهتمام بمجالاته المختلفة كقطاع الفلاحة من زراعة الأراضي و تربية المواشي.

كما إزدهرت الصناعة على عهد الأدارسة الأوائل بفضل إستغلال الثروة المنجمية، كمناجم الفضّة و النّحاس، و قد ساعدت هجرة الكثير من حرفيي الشرق و الأندلس إليها في تنوع الصنائع و تحسين وسائل الإنتاج.

إن التنوع في النشاط الاقتصادي أدّى إلى وفرة الإنتاج الذي ترتب عنه بدوره تنشيط الحركة التجارية، بحيث كانت تصدر إلى بلاد السودان الجلود من مدينة فاس و أغمات، و كانت الأندلس تجلب الخشب من المغرب لصناعة السفن.

كان للمبادلات التجارية خاصة مع بلاد السودان التي بها سوق الذهب و الرّقيق، دور في كسب عائدات مالية إضافية لخزينة الدولة، نتيجة الضرائب المفروضة على السلع ما انعكس إجابا على النشاط الحضري و العمراني و الاجتماعي للدولة.

العمارة و العمران :

بلغت فاس على عهد يحيى بن محمد أوجها، حيث أقام بها منشآت كثيرة و امتدت على سفوح الجبال و أنشئ بها جامع الأندلسيين و جامع القرويين أحد أهم أقطاب العلم في بلاد المغرب على يد فاطمة بنت محمد الفهري.

كما كان للأدارسة إنجازات هامة بالمغرب الأوسط، حيث ساهموا في تعمير العديد من المدن كمدينة تنس و وهران و أغادير بتلمسان و سوق إبراهيم و سوق حمزة و مدينة جراوة.

الدولة الأغلبية (184 – 296هـ / 800 – 909م):

لمحة تاريخية :

إن الظروف التي سادت بلاد المغرب من إضطراب و فوضى و صراع مذهبي و ثورات الجند ضدّ الخلافة العباسية، أملت على الخليفة هارون الرّشيد السّماح لابراهيم ابن الأغلب أحد قواد جيوش الدولة و من رجالها المخلصين بتأسيس دولة تتمتع باستقلال شبه ذاتي، و تكون قاعدة سياسية و عسكرية للوقوف ضدّ الحركات الإنفصالية بالبلاد مقابل إلتزامات مالية إتجاه السلطة المركزية ببغداد.

بادر الأمير إبراهيم ابن الأغلب في تأسيس دولته سنة (184هـ / 800م) و جعل من القيروان عاصمة لها قبل نقلها إلى رقادة و منها إلى العبّاسية، و قد تعاقب على حكم إمارة الأغالبة إحدى عشر أميرًا آخرهم زيادة الله بن عبد الله الأغلب، و على عهده قوى أمر الداعي عبد الله الشيعي و عظم شأنه و على يده كانت نهاية بنو الأغلب بإفريقية سنة (296هـ / 909م).

الأنشطة الاقتصادية :

عرفت الدولة في بعض فتراتها حرص أمرائها مثل إبراهيم الثاني (261 هـ / 874 م) على الاهتمام بمختلف النشاطات الاقتصادية، كالزراعة و ذلك بتعمير شبكة قنوات الرّي إضافةً إلى القناطر و الخزانات و استصلاح الأراضي.

شهدت أيضًا تطور الحرف و المهن كنتيجة للتطور العمراني الذي عرفته البلاد، و قد اتسمت هذه الصناعات بتنوعها فمنها المتعلقة بالبناء مثل صناعة النجارة و الحدادة و الخزف، إضافة إلى صناعات أخرى كصناعة النسيج التي اشتدّ عليها الطلب في المشرق و المغرب على حدٍّ سواء لما نالته بعض المنسوجات من شهرة مثل البسط و الزّرابي التي إشتهرت بها القيروان و المنسوجات الحريرية بقابس ...الخ، و صناعة الجُلود التي عرفت بها مدن عديدة

أهمها القيروان، إضافة إلى صناعات اخرى نذكر منها: صناعة الأدوية و العطور و الصّياغة و الزجاج و تجليد الكتب، و قد عرفت بها مدينتا القيروان و تونس بصفة خاصة.

عرفت التجارة في هذا العصر نشاطا كبيرا، بحيث كانت تمثل أهم دعائم خزينة الدّولة و ذلك بفضل الطرق التجارية البرية و البحرية التي كانت تحوز عليها الدولة، كالطريق الرابط بين غانة و النوبة و الذي يعبر بلاد المغرب، جعل من الحواضر الكبرى مراكزًا تجارية تتفرع منها مسالك تجارية كثيرة، أما فضل الطرق البحرية في ذلك جاء نتيجة سيطرة الأسطول الأغلبي على جزء كبير من البحر المتوسط الذي فتح الباب أمام تجارة إفريقية مع جزر البحر الأبيض و جنوب غرب أوروبا فضلا عن المشرق.

زاد هذا النشاط الاقتصاد في حركة إستغلال الذهب و العبيد الذي مصدره بلاد السودان الغربي، حيث ساهم الأول في تجمع ثروة طائلة بالمدن المغربية، و كان للثاني قيمة إقتصادية و عسكرية كبيرة في العالم الإسلامي، بحيث كان العبيد يلحقون بقطاع الزراعة و الصناعة و حراصة القوافل التجارية و منهم من كان يلحق بالجيش.

العمارة و العمران :

تعتبر فترة حكم الأغالبة في إفريقية من أمجد فترات تاريخها، حيث عرفت البلاد خلالها نهضة عمرانية بإقامة البنايات الدينية كالإهتمام بتجديد مسجد القيروان و الزيتونة، إضافة إلى عنايتهم بالمنشآت العسكرية و المدنية كبناء الأسوار و الأبراج للمدن و خاصة الساحلية منها، و إنشاء دار صناعة السّفن بتونس و دار صناعة سوسة اللتان كان لهما دور هام في تاريخ البحرية الإسلامية خاصة بحوض البحر الأبيض المتوسط و خير مثال على ذلك فتح جزيرة صقلية، دون أن نغفل إسهاماتهم في بناء الرباطات لمراقبة الثغور و اتخاذها قواعدًا تنطلق منها العمليات العسكرية ضدّ العدو البزنطي و من أشهرها رباط سوسة و رباط المنستير.

أمّا المنشآت المدنية و خاصة مدينة القصر القديم (العباسية) التي بناها إبراهيم بن الأغلب جنوب مدينة القيروان لتكون مقر حكمه و إقامة جنده، كانت تتكون من قصور و حدائق و معسكرات و دور العبادة، و شيدوا أيضا مدينة رقادة المقر السياسي الجديد لبني الأغلب على عهد الأمير إبراهيم ابن أحمد، حيث شيّد بها عددًا من القصور و عمّرت بالأسواق و الحمّامات و الفنادق، كما أكثر الأغالبة من بناء الصهاريج و المواجل و من أمثلتها ماجاء ذكرها في المصادر الجغرافية العربية، مواجل القيروان و تونس و سوسة.

الحياة الفكرية و الثقافية:

عرفت الحركة الفكرية على عهد الأغالبة نهضة شاملة، حيث أصبحت تواكب مثيلاتها في المراكز العلمية بالمشرق خاصة، و قد ساعد على ذلك شغف بعض أمرائها بالعلم و من مظاهر ذلك جلب الكتب من مختلف المراكز العلمية بالمشرق الإسلامي، إضافة إلى إستقطاب العلماء العرب من الداخل و الخارج و العمل على توفير الجو المناسب لهم، و أقاموا مراكزًا للترجمة حيث أفردوا لها مكانا ببيت الحكمة و زودوها بالمترجمين من الصّقالبة و العرب، الذين أسهموا في ترجمة الكثير من المصنفات العلمية اللّاتينية إلى العربية، نذكر منها كتاب بْلينوس الروماني في علم النّبات الذي كان ذا نفع كبير للصيادلة في غرب العالم الإسلامي.

كما ارتبط نجاح هذه الحركة، بإنشاء بيت الحكمة التي كانت برقادة، و تذكر الدّراسات التاريخية أنها لا تختلف عن بيت الحكمة في بغداد، حيث ضّمت خمسة قاعات أفردت إحداها لتكون مكتبة، و خصصت قاعة أخرى لأعمال النّسخ و التّرجمة، في حين استعملت القاعات الأخرى للتدريس و المناظرة.

شهد هذا العصر كثرة العلماء فقد بلغ عدد الذين أخذوا العلم عن الإمام سحنون بن عبد السلام مايزيد عن السّبع مائة عالم ساهموا في نشر المذهب المالكي بأقطار البلاد، و لم يقتصر نشاط حركة هذه العلوم على الرّجال فقط بل تعداه إلى النساء، و نذكر منهنّ خديجة بنت الإمام سحنون، التي ساهمت في تنوير نساء عهدها.

الدولة الحمّادية (407 – 547هـ / 1014 – 1152):

لمحة تاريخية

أسسها حمّاد بن بكين سنة (405هـ / 1014م)، و اتخذ من القلعة عاصمة له و لأبنائه من بعده، و في عهد الأمير النّاصر بن علناس و تحديدا سنة (454هـ/ 1014م) نقل عاصمة الدّولة إلى بجاية و ذلك لإعتبارات سياسية و أمنية و إقتصادية، و استقرّ بها الأمر إلى أن استولى عليها الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي سنة 547هـ / 1152 م، و كانت يومها تحت سلطة الأمير يحيى بن العزيز.

الأنشطة الاقتصادية:

تنوعت الأنشطة الاقتصادية للدولة كالزراعة و تربية الحيوانات، و ازدهرت الصّناعة مستفيدة من وفرة المادة الأولية و إقبال أرباب الصّنائع من بلاد إفريقية و المشرق على البلاد، و تأتي على رأس هذه الصناعات، صناعة النسيج حيث اشتهرت بأكسيتها الجيّدة، و بها كانت صناعة الخزف و الزجاج التي تم العثور بالقلعة على بقاياها التي تدل على جودتها، و راجت صناعة التجارة و الحدادة بها لوفرة الخشب و المعادن بأراضيها خاصة مع نشاط حركة البناء و انشاء الدولة لدور الصناعة البحرية.

العمارة و العمران :

عرفت حركة العمران نموا بفعل هجرة النّاس إليها من إفريقية فرارًا من الغزو الهلالي و من صقلّية أمام استيلاء النورمان و من الأندلس أمام إستيلاء المرابطين عليها، و قد أنشأ الحماديون القصور في مختلف المدن كقصر بلّارة و قصر اللؤلؤة و قصر الملك و قصر الكوكب و قصر السّلام و قصر أميمون بكل من القلعة و بجاية على عهد الأمير النّاصر و ابنه الأمير المنصور، و أقاموا أيضا المساجد و المنائر و الأسوار و القناطر.

الحركة الفكرية و الثقافية:

عرفت الدولة الحمّادية نهضة علمية هامّة، حيث عرف عن أمرائها بتشجيع العلماء بالجوائز و الصّلات ما جعل أصل العلم يقبلون عليها، فغصت عواصمها بطلّاب العلم، كما كان العلماء يتناظرون في مجالس بني حماد و يؤلفون لهم الكتب.

الدولة المرينية (668 – 957هـ / 1269 – 1554م):

لمحة تاريخية

إنّ إنهزام الموحدين في معركة العقاب بالأندلس سنة 680 هـ/ 1213م، أعقبها ضعف شديد لدولتهم، و قد مهد ذلك دخول المرينيين من إفريقية و المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، حيث إنتشروا بها إنتشارا واسعًا و عملوا على كسب الرّعية إلى جانبهم من خلال نشر الأمن الذي فقدته البلاد، و دخلوا في صراع عسكري مع الموحدين لسنين طويلة إستطاعوا خلالها توسيع سلطتهم مستفدين من عدة ظروف و منها خبرتهم الحربية التي اكتسبوها بمشاركة الموحدين في حروبهم من قبل.

إستطاع المرينيون إخضاع المدن الكبرى واحدة تلوى الأخرى للتضييق على الموحدين بالجنوب خاصة باحتلال مدينة سلا و رباط الفتح، وواصلوا في هذه السياسة بالتوسع جنوبا باحتلال سجلماسة و درعة ممهدين الطريق أمامهم لإخضاع مراكش التي استولوا عليها سنة 668هـ / 1269م على يد الأمير أبو يوسف يعقوب، و كان ذلك إذانا لميلاد الدولة المرينية ببلاد المغرب.

شيّد الأمير المريني المدينة البيضاء و جعل منها مقرًّا دائما لسلكته، و اتخذ لنفسه الوزراء و الحجاب و الكتاب، و القضاة، و قد كان للمرينيين دور هام في نصرة الإسلام بالأندلس و ذلك بالتصدّي لإعتداءات الإسبان على أملاك المسلمين بها و خير دليل على ذلك الغزوات التي سيرها الأمير المنصور إلى الأندلس، أخضع خلالها العديد من حصون و مدن العدو.

عرفت الدولة المرينية إزدهارًا في مختلف مجالات الحياة، إلّا أن بوفاة الأمير أبي الحسن بدأ الضعف يتسرب إليها و ذلك لإتصاف بعض أمرائها بالضعف، ما نتج عنه تقلص سلطتهم ببلاد المغرب و عودتها إلى حدودها التقليدية، إضافة إلى إستيلاء البرتغال على مدينة سبتة التي كانت نذيرًا بانهيار الدولة التي إختتمت عهدها بالإقتصار على مدينة فاس إلى أن سقطت على يد السعديين سنة 956هـ / 1554م.

الأنشطة الاقتصادية:

عرفت الزراعة في العصر المريني إزدهارا بفضل ما تتمتع به الدولة من شروط لقيام هذا النشاط من وفرة المياه وجودة التربة و تنوع المناخ إضافة إلى إنشاء أنظمة الرّي و إقطاع الأراضي الزراعية على كبار رجال الدّولة، ما أدّى إلى وفرة المحاصيل و تنوعّها من حبوب و فواكه و خضر، و قد ساعد كثرة الغطاء النباتي في إنتاج العسل، و في توفّر ثروة حيوانية كبيرة، إضافة إلى وفرة الأسماك و ذلك نظرا لكثرة الأنهار و توفرها على شريط ساحلي واسع مطل على البحر الأبيض المتوسط من جهة و على المحيط الأطلسي من جهة أخرى.

كان لوفرة المادة الأولية المتنوعة، ووجود أسواق داخلية و خارجية، و الخبرة الصّناعية، دور في تشجيع الصناعة و تنوعها، فكثرة الغابات أدت إلى وفرة مادة الخشب التي نهضت بعدد من الصناعات مثل صناعة الفحم، و في توفير مستلزمات البناء و في صناعة السفن بعدد من المدن كَسَلاَ و سبتة، وساهمت وفرة المعادن من الحديد و النحاس و الفضّة إلى إزدهار صناعة الحدادة الصّياغة، و أدّت وفرة الثروة الحيوانية إلى وفرة الصّوف و الجلود التي نهضت بصناعة النسيج و الدّباغة و الصّباغة، إضافة إلى صناعات أخرى مثل صناعة الفخّار و الزّجاج و معاصر الزيتون.

كانت التّجارة المرينية نشيطة و ذلك لوجود مناخ مناسب يُساعد على ممارسة هذا النّشاط الاقتصادي من تنوّع الطرق التجارية البحرية و البرية و توفير الأمن للقوافل العابرة لها، فقد

حَرَصَ سلاطين بني مرين على تأمين طرق المواصلات البرية باستحداث تنظيمات (الرتب) تسهر على حماية التجار و أملاكهم، إضافة إلى إمضاء معاهدات مع الأطراف الأروبية تضمن حماية تجّارها.

كما ساهمت قوافل الحجّ بالنهوض بهذا القطاع من خلال تسويق المنتجات المحلّية و جلب ما تحتاجه الأسواق و الأنشطة الصناعية من سلع على شكل مواد مصنعة أو على شكل مواد أوّلية تتقدّمها الثّياب الثمينة و الحلي، و نتج عن إزدهار النشاط الصّناعي بمدن الدّولة رواج التجارة الدّاخلية بين مدن الدّولة التي كانت تروّج بها منتوجاتها، في حين ساهمت التجارة الخارجية في تدعيم الخزينة إنطلاقا من الضرائب التي كانت تفرض على السلع العَابِرة لأراضيها، و ساهمت أيضا في ثراء تجّارها الذين كانوا يحملون الذهب و الصّمغ من السودان إلى الأندلس و منها إلى أروبا و حوض البحر الأبيض المتوسط.

العمارة و العمران :

حرص المرينيون على تنشيط حركة البناء و التّعمير و قد شملت هذه الحركة جميع جوانب الحياة في المجتمع المريني من مدن جديدة، كالمدينة البيضاء التي شيدها السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة 674 هـ / 1275 م، و شيّد أيضا مدينة البَنية لإقامة عسكره و كان ذلك سنة 781 هـ/ 1282 م، و بنى السلطان يوسف بن يعقوب مدينة المنصورة سنة 702 هـ / 1302 م لمحاصرة تلمسان، و شيّد السلطان أبو ثابت مدينة تِطوان لنزول جنده للتضييق على مدينة سَبتة و تم ذلك سنة 785 هـ /1386 م.

أما المنشآت العامّة فهي متنوعة كالمساجد (مسجد فاس الجديد، مسجد العبّاد، مسجد سيدي الحلوي)، و إشتهر سلاطين الدّولة بِبناء المدارس في عاصمة الدولة و غيرها من مدن المغرب الأقصى، كمدرسة الصفارين و مدرسة العطارين و مدرسة المدينة البيضاء و مدرسة الصهريج و المدرسة الكبرى و مدرسة الوادي و مدرسة المصباحية و المدرسة البوعنّانية بمدينة فاس، و شيّدوا مدارسًا أخرى بسائر بلاد المغرب، فأنشأ السلطان أبو الحسن بمدن المغرب

الأقصى و بتلمسان عددًا منها مثل مدرسة تازى و مكناسة و سَلَا و طنجة و سبتة و أنْفا و ءازمّور و أسفي و تاغمات و مرّاكش و القصر الكبير و بالعبّاد بتلمسان.

كما إهتم سلاطين الدّولة المرينية بإقامة المستشفيات، فقد شيّد السلطان أبو الحسن عددًا منها بمدينة فاس، إضافة إلى دور الرعاية الاجتماعية من زوايا و أربطة لإيواء المسافرين خاصة بالمناطق البعيدة عن العمران، و من العمائر التي تخدم العامّة نذكر أيضًا الفنادق و القناطر (قنطرة الصّباغين و قنطرة الرّملية و قنطرة السلسلة و قنطرة الواقدين بمدينة فاس، زيادةً على ما أنشأه السلطان أبو الحسن من قناطر داخل فاس و غيرها من مدن المغرب ، مثل قنطرة وادي ردات، و قنطرة بني بَسيْل و قنطرة الوادي، و قنطرة الرّصيف و قنطرة الجيّاد و قنطرة وادي سَطفسيف بتلمسان.

ساهمت طبيعة الدّولة التي تميّزت بالحروب في الاهتمام بأعمال التّحصين بالنّاحية الشرقية و في بلاد الأندلس، و على طول سواحل الدولة المطلة على البحر الأبيض و على المحيط لمواجهة الخطر الإسباني و من أعمال التّحصين التّي ميّزت هذه الفترة نذكر المدن العسكرية (البنية، تطوان، أفراك، المنصورة) و بناء أسوار المدن لتعزيز أسوار سَلَا و بناء أسوار بَادْس، إضافة إلى إقامة القلاع و الأبراج مثل البرج الأحمر بوهران بالمغرب الأوسط.

الحياة الفكرية و الثقافية:

عرفت الدولة المرينية نهضة علمية كبيرة و ذلك بفضل حبّ و شغف سلاطينها بالعلم، و من أمثلة ذلك السلطان أبو عنّان الذي كان فقيها عارفا بالمنطق و أصول الدّين و الحديث و الحساب و اللغة العربية، ومن مظاهر إهتمامهم بالحركة العلمية و تشجيعهم لها بناء عدَد كبير من المدارس التي كان لها دور في تكوين أجيال كثيرة من العلماء، و حرصوا أيضا على إستقطاب العلماء و تلبية حاجياتهم، فقد عرف عن سلطان أبي الحسن حِرصه على تتبع أخبار العلماء في أنحاء دولته و ضمّ خيرتهم إلى خواص مجلسه مع إجراء الجرايات و النفقات عليهم، و من أهم العلماء الذين ضمّهم مجلسه أبو العبّاس أحمد بن محمّد الزواوي الذي كان

إمامًا في القراءات، و الخطيب إبن مرزوق الذي كان قمّة في الحديث و الفقه، و الأبلي الذي كان أعلم أهل عصره بالعلوم العقلية، إضافة إلى تشجيعهم لحركة التأليف و الإختراع من خلال تقديم الهبات و العطايا للعلماء نظير مؤلفاتهم و إختراعاتهم، و قاموا أيضا بعقد مجالس علمية للمناظرة و مطارحة الأدباء و محاورة الشعراء، حيث شهد البلاط المريني في عهد السلطان أبي الحسن أعظم مجالس العلم التي شهدتها الدولة المرينية، فقد إحتضن البلاط المريني في عهده حشدًا من العلماء لا يحصى عدَدًا .

يظهر إهتمام السلاطين بالعلم و العلماء أيضا في إنشاء المكتبات نذكر منها خزانة مدرسة الصفارين التي طلب مشيدها السلطان يعقوب إبن عبد الحق كتبها من ملك قشتالة، و المكتبة التي شيدها السلطان أبو عنّان بفاس إن إحتوت على كتب تخدم شتّى العلوم، و لم تقتصر المكتبات العامّة على فاس بل شملت مدنًا أخرى كمدينة سَبتة.

الدولة الزّيانية (633 – 962 هـ / 1235 – 1555 م) .

لمحة تاريخية :

تأسست الدّولة الزّيانية بالمغرب الأوسط سنة 633 هـ / 1235 م) على يد السلطان يغمراسن بن زيان (633 – 681 هـ / 1235 – 1282 م)، الذي إتخذ من تلمسان دار ملكه، و قد شهدت الدولة على إمتداد ثلاث قرون و نيف أحداث تاريخية هامّة غلبت عليها الصّراعات الدّاخلية و الخارجية، ما أدّى إلى ضعف السلطة الحاكمة في تلمسان و تقلّص سيادتها على مساحة كبيرة من المغرب الأوسط و تبعية السلطان الزياني دول المجاورة من المرينيين و الحفصيين و إزدياد نفوذ القبائل العربية بالبلاد، كلّها ظروف أنهكت الدّولة و جعلتها في مطمع الإسبان الذين إحتلوا موانئها و مدنها الساحلية الهامّة من شرشال شرقا إلى هنين غربا، و مهّدت لسقوطها على يد السلطة التركية بمدينة الجزائر على عهد القائد صالح رايس سنة 962 هـ / 1555 م.

الأنشطة الاقتصادية:

عرفت الدولة الزيانية نشاطا إقتصاديا متنوعا، يتمثل في الزراعة التي غلب عليها زراعة الحبوب، إضافة إلى نشاط تربية الحيوانات الذي عرف إزدهارا بفضل وفرة الماء و الكلاء ما أدّى إلى وفرة الإنتاج و ساهم في تأمين الغذاء و المادة الأوّلية لبعض الصناعات ، دون أن نغفل إستعمال هذه الثروة في النّقل و الحروب.

إنّ وفرة المادة الأوّلية المحلّية من الصوف و القطن و الكتّان و الحرير و الجلود و الخشب و الحديد و بعض المواد الخام الغير متوفرة بأراضي الدولة مثل الذهب الذي يستورد من السودان و الفضّة من الأندلس و النحاس من الدول الأروبية و السودان الغربي، إضافة إلى وفرة العمالة الفنية و كثرة الأسواق الداخلية و الخارجية، عوامل أدت إلى إزدهار المراكز الصّناعية و تنوع الصنائع بها، نذكر منها صناعة النسيج التي إشتهرت بها عدد من مدن المملكة كتلمسان التي عرفت بالمنسوجات الصوفية، التي كان عليها الطلب كبير من سائر أقطار المغرب، و صناعة الحرير التي كانت تصدّر إلى الأندلس و بمدينة وجدة كانت تصنع أكسية صوفية ليس لها نظير في الجودة، و ندرومة التي كانت ضالعة في صناعة الأقمشة القطنية.

إشتهرت الدّولة أيضا بصناعة الذهب و صناعة النّحاس و الحدادة و الصّابون و صناعة الورق، إضافة إلى صناعة الدباغة التي كانت تتم خارج المدن و تصدّر إلى أروبا و في مقدمتها إيطاليا و قطلونية، و حرفة الصّباغة و صناعات أخرى لها علاقة بالبناء.

إنّ موقع الدّولة الرّابط بين المغرب الأدنى و الأقصى و توفرها على عدد من المراسي مثل هنين، المرسى الكبير، وهران، تنس، إضافة إلى توفّر الماء و تأمين الطرق التجارية و إقامة المؤسسات الاقتصادية بمدنها كالفنادق و القيصريات و ضبط القوانين التي تنظم التعامل بين التجار و الممالك الأروبية، عوامل جعلت الدولة الزيانية محطّة أنظار للتجار من البلاد

الإسلامية و الممالك الأروبية، نتج عنها حركة تجارية نشيطة و أصبحت مصدر أساسي للثروة بالبلاد.

كانت صادرات الدولة تسوق إلى بلاد السودان على شكل سلع متنوعة كالمنسوجات و المصنوعات الزجاجية و العطور و البخور و المنتوجات الزراعية، في المقابل تشتري منها الرّقيق و الذّهب و الملح و النّحاس و ريش النعام و بعض التوابل، في حين تبيع للممالك الأروبية سلعا تشمل الحبوب كالقمح و الشعير و الفواكه خاصة المجففة منها و العسل و الزيت و الصوف و الزرابي و الجلود و المواشي من الغنم و الماعز و الخيل و تشتري منها المنسوجات من الجوخ و الأسلحة من سيوف و رماح و خَناجر ....إلخ

العمارة و العمران :

عرفت الدولة تنوع مظاهر العمارة و العمران بها، حيث إهتم سلاطينها بتجديد مساجدها كالزيادات التي ألحقت بعمارة المسجد الكبير و مسجد أغادير بتلمسان و بمسجد مدينة الجزائر، إضافة إلى إنشاء مساجد جديدة خاصة بمدينة تلمسان مثل مسجد أولاد الإمام و مسجد سيدي بلحسن، و شيدوا أيضا بالمدينة عددًا من المدارس (المدرسة القديمة و الجديدة و المدرسة اليعقوبية)، إضافة إلى عمارة القصور التي كثرت بتلمسان و استقدموا الصّناع من الأندلس لبنائها و زخرفتها.

وكان للعمارة العسكرية حظ وافر بأقطار المملكة في ظل كثرة الحروب حيث شيدوا أسوار المدن و بنو الحصون (حصن أبي حمّو موسى الأوّل و حصن تاجحمومت و حصن بكر و حصن أزفون و حصن تامززدكت).

الحياة الفكرية و الثقافية:

عرفت الدولة الزيانية حركة علمية نشيطة خاصة بحواضرها الكبرى كتلمسان، حيث يتضح ذلك من خلال مظاهر علمية متعددة منها إنتشار معاهد التدريس من مساجد و مدارس

و ظهور عدد كبير من العلماء بالمدينة على مدى ثلاثة قرون، عملوا خلالها على نشر العلوم بمدن المشرق و المغرب و الأندلس، إضافة إلى تنوع العلوم المتداولة داخل من المدينة من علوم عقلية و نقلية، إلى جانب إنتشار المكتبات العامة و الخاصّة.

كما كان سلاطين بني زيّان دور في النّهوض بالحركة الفكرية من خلال إنشائهم للمدارس و تعيين الجرايات للمدرسين و الطلاب، و إجتهاد الحكام في إستقطاب العلماء و الحرص على تلبية إحتياجاتهم و من مظاهر إهتمام سلاطين الدولة بالحياة الفكرية مشاركتهم للعلماء في الإحتفالات بالأعياد و المناسبات، و إجراء المسابقات الثقافية و المناظرات العلمية التي كانت تجرى داخل قصر المشور، و إهتم أيضا السلاطين بإنشاء المكتبات العامة داخل المساجد و المدارس مثل خزانة المسجد الأعظم و وفّروا لها الأوقاف حتّى تؤّمن دخلا للعاملين بها و لشراء الكتب.

قائمة المصادر و المراجع

- إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.
- المقدسي (أبو عبد الله محمّد)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط 03، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر ، 1991.
- الأسطخري، **المسالك و الممالك**.
- الادريسي (الشريف)، **المغرب و أرض السودان و مصر و الأندلس**، مطبعة بريل، ليدن ، 1864.
- المراكشي (عبد الواحد)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق، محمد زينهم محمد عزب، دار الطرحاني للنشر و التوزيع، 1994.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين)، **معجم البلدان** ، مج 05 ، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.
- حمدي (عبد المنعم حسين)، **تاريخ و حضارة المغرب**، دار المعرفة الجامعية، 2005.
- الفقي (عصام الدين عبد الرؤوف)، **تاريخ المغرب و الأندلس** ، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، مصر 1990.
- محمود (إسماعيل)، **الأدارسة حقائق جديدة**، ط،01 ، مكتبة مدبولي، القاهرة،1991.

- الجيلالي (عبد الرحمن بن محمّد)، **تاريخ الجزائر العام**، ط 02، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1965.
- سوادي (عبد محمد)، صالح (عمّار الحاج)، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ط، 01، المكتب المصري، مصر،2004.
- ممدوح (حسين)، **إفريقية في عصر إبراهيم الثاني الأغلبي**، ط.01، دار عمّار للنشر، عمّان، 1997.
- محمود (إسماعيل)، **الأغالبة سياستهم الخارجية**، ط 03، عين الدراسات و البحوث، مصر، 2000.
- إبن وردان، **تاريخ مملكة الأغالبة**، تحقيق، محمد زينهم محمد عزب، ط 01، مكتبة مديولي، 1988.
- الميلي (مبارك بن محمد)، **تاريخ الجزائر في القديم و الحديث**، ج،02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د ت.
- ابن مرزوق (محمد بن أحمد التلمساني)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981.
- الحريري (محمد عيسى). **تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني**، ط 02، دار القلم للنشر و التوزيع، الكويت، 1985.
- الفاسي (ابن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة و الوراقة، الرباط 1972.
- التنسي (محمد بن عبد الله)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق، محمود آغا بوعياد، موقع للنشر، الجزائر، 2011.
- حساني (مختار) ، **الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية للدولة الزيانية**، اطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 1985 – 1986.
- شقدان (بسام كامل عبد الرّزاق). **تلمسان في العهد الزّياني**، مذكرة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين ، 2002.
- بوظبة (محفوظ)، "المنشآت المعمارية لسلاطين بني زيان بالمغرب الأوسط" ، مجلة دراسات أثرية، معهد الأثار الجزائر، 2022.

عمارة المساجد

تاريخ عمارة المساجد المغربية:

ارتبط تاريخ إنشاء المساجد ببلاد المغرب بتأسيس أولى المدن بالمنطقة وتحديدا بمدينة القيروان في منتصف القرن الأول الهجري خلال الفترة الأموية، حيث شيّد الفاتح عقبة بن نافع الفهري (ض) مسجدها الجامع سنة 51هـ، وقد جاء في << البيان المغرب >> أنّه شيّد أيضا مسجد درعة ومسجدا بالسّوس الأقصى ومسجد وادي نفيس.

تعرّضت عمارة مسجد القيروان بداية من القرن 2هـ/ 8م إلى عدّة توسيعات كالتي تمّت على عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وعلى يد والي بني العبّاس بإفريقية يزيد بن حاتم سنة 155هـ، إضافة إلى أعمال معمارية هامّة خلال الفترة الأغلبية على عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم ابن الأغلب والأمير إبراهيم إبن أحمد، كما شهدت الفترة الأموية إنشاء مسجد أبي المهاجر الدّينار بمدينة ميلة بالمغرب الأوسط مطلع الستينيات من القرن 1هـ/ 7م، وقد شغلت عمارته موضعًا بالقسم العلوي من المدينة بجوار دار الإمارة وباب الرُّوس أحد المداخل الرئيسية للمدينة.

عَرَفت عمارة المساجد في نفس الفترة حدثًا هامًّا بإنشاء مسجد الزيتونة الذي تضاربت الآراء حول منشئه، فهناك من يُنسبُه إلى حسّان بن النعمان (ض) والبعض الآخر إلى عبيد الله بن الحبحاب سنة 114هـ –116 هـ/ 732 – 734م.

شهدت بلاد المغرب انطلاقًا من أواخر النِّصف الأوّل من القرن 2هـ/ 8م الذي تزامن مع قيام الخلافة العبّاسية، تعمير مدن جديدة شكّلت المساجد جانبا هامًّا من عمرانها، حيث كان لمدينة سجلماسة عاصمة بني مدرار مسجدًا جامعًا بجوار دار الإمارة شيّده اليسع ابن أبي القاسم سنة 140هـ/ 757م.

تأسست في سنة 160هـ دولة بني رستم التي اتخذ أميرها عبد الرحمان مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط عاصمة له، وكان أوّل ما شيّده بها مسجدها الجامع، وقد نقل إلينا الجغرافي البكري في كتابه " المسالك والممالك " وَصْفًا موجزًا لموضعه وعمارته.

توالت حركة قيام الدول المستقلّة ببلاد المغرب، ففي سنة 172هـ/ 789م أسّس مولانا إدريس الأول مدينة فاس بالمغرب الأقصى عاصمة للأدارسة، وشيّد بها جامع الأشياخ، وفي سنة 192هـ/ 808م شيّد إبنه مولانا إدريس الثاني جامع الشرفاء بعدوة القرويين في الضِّفة الثانية من نهر فاس، وقد امتد سلطة الأدارسة على قسم هام من بلاد المغرب الأوسط التي عمّروا بها مدنًا كثيرة، مثل سوق حمزة وسوق إبراهيم ومدينة أغادير بتلمسان التي لا تزال بقايا جامعها الكبير الذي شيّده إدريس الثاني سنة 199هـ شاهدة على الإنجازات المعمارية لهذه الدولة.

قام الأغالبة بمجموعة من أعمال التجديد والتوسعة بعمارة المساجد المبكّرة بإفريقية بكل من مسجد القيروان الذي شهد عدّة تجديدات منذ تأسيسه إلى نهاية عهد الأغالبة، ومن جملة هذه الأعمال المعمارية رفع قبابه ومئذنته وتم ذلك خلال فترة حكم زيادة الله بن الأغلب، وعرف هذا العهد أيضًا تجديد وتوسعة جامع الزيتونة، وأكمل أعماله بالمسجد من بعده إبراهيم بن أحمد الذي أمر ببناء قبابه المضَلَّعة ووضَع فيه أعمدة الرّخام وزيَّنه بالزخارف والنُّقوش والكتابات الكوفية الجميلة.

قام أمراء الأغالبة أيضًا ببناء المساجد بالمدن التي شيّدوها ببلاد إفريقية، كالمسجد الذي شيّده إبراهيم ابن الأغلب بالعبّاسِية (القصر القديم) سنة 184هـ، حيث انفرد عن غيره بمئذنته المدورة على هيئة المآذن العباسية، وبمدينة رقّادة بنا جامعها الكبير الأمير إبراهيم إبن أحمد سنة 263هـ، وجامع مدينة سوسة الذي شيّده أبو العبّاس خامس أمراء بني الأغلب.

عرفت بلاد المغرب نهاية القرن 3هـ/ 9م قيام الخلافة الفاطمية التي نقل إمامها عبيد الله المهدي عاصمته من رقّادة إلى المهدية على ساحل البحر من بلاد إفريقية نهاية العقد الأوّل من القرن 4هـ/ 10م، وبنى بها جامعها الأعظم مُجَاورًا لقصر الخلافة الذي يحمل إسمه، وكان الجامع يومها يتكوّن من سبع بلاطات، وبمدينة صبرة المنصورية ناحية القيروان شيّد إبنه بها مسجدًا كبيرًا لمّا استوطنها في العقد الرّابع من القرن 4هـ/ 10م.

حكم الزّيْريون من بعدهم بلاد المغرب وواصلوا حركة تعميرها، وممّا خَلّفوه بمدنها المساجد، فقد ذكر الهادي رُوجي إدريس عددًا منها بمدينة القيروان، نذكر منها مسجد التّوفيق ومسجد المرجِي ومسجد باب سلم الكبير وهو من المساجد المعلّقة.

أمّا المساجد الحمّادية فهي الأخرى كثيرة بمدن المغرب الأوسط، فقد أشار عبد الرحمان ابن خلدون في كتابه " العبر" أنّ الأمير حمّاد بن بلكين لمّا بنا مدينة القلعة مطلع المائة الرّابعة للهجرة استكثر فيها المساجد، ومن أمثلتها المسجد الجامع بجوار قصر الخلافة حيث لا تزال أثاره المعمارية قائمة.

لمّا نقل الحمّاديون عاصمتهم من القلعة إلى بجاية على عهد الأمير النّاصر بن علاء النّاس بَنُوا بها مساجدًا كثيرة مثل مسجد الرّيحَانة الذي درّس به المهدي بن تُومَرت، ومسجد المرجانة بحيّ اللؤلؤة داخل باب أمسيُون، والمسجد الأعظم الذي كان بحي باب اللّوز بجوار قصر الكوكب وهو من عمل الأمير المنصور الذي تولّى الحكم سنة 483هـ.

قامت في العقد الثاني من النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م الدّولة المرابطية وعاصمتها مرّاكش، شيّد بها أميرها يوسف بن تاشفين مسجدًا جامعًا، واتّخذ من مسجد القرويين مركزًا روحيًا وعمرانيًا لمدينة فَاس وقام بأعمال توسعة به بعد أن وحّد المدينة داخل سُورٍ واحد، وشيّد مساجدًا في الأحياء التي لم تكن بها مساجد، وبمدينة تلمسان شيّد الجامع الكبير بمدينة

تاجرارت بجوار القصر القديم، يضاف إلى مجموعة من المساجد التي سبق تاريخ بنائها دخول المرابطين إلى المدينة.

شهَدَ القرن 6هـ/ 12م حدثًا هامًّا بقيام الدّولة الموحّدية التي كان لحكّامها الرّغبة السّياسية في حكم البلاد على نطاقٍ واسع، وقد أمر أميرها عبد المؤمن بن علي بإصلاح وبناء المساجد في جميع بلاده، ومن المساجد التي رُفعت معالمها على عهده الجامع الذي شيّد مكان المسجد المرابطي، وجامع الكُتيبة بالقرب من قصبة المدينة، وشيّد بالمغرب الأوسط مسجد تَاجْرة على ساحل البحر بنواحي نَدْرومة وكان ذلك سنة 540هـ، وبنى أيضا مسجد البَطحاء بنواحي الشلف وتمّ ذلك سنة 555هـ.

شيّد ابنه الأمير يوسف سنة 567هـ جامع إشبيلية بالأندلس، ولما خلفه على الحكم إبنه الأمير يعقوب المنصور الذي عرف عنه حبُّه لأعمال البناء، شيّد جامع حسّان بالرّباط الذي ينفرد عن مساجد البلاد بضخامة مئذنته وكان ذلك سنة 593هـ/ 1195م، ومسجد القصبة بمراكش الذي يعود تاريخه إلى نفس السنة، وشيّد أيضًا جامع مدينة شَالَة.

كما عرفت فترة حكمه تجديد عمارة عددٍ من المساجد التي شيّدها أسلافه، ففي سنة 591هـ/ 1195م جدّد جامع إشبيلية وبنا منارته، إضافة إلى أعمال التوسعة التي قام بها بمسجد الكُتُبية سنة 593هـ/ 1197م حيث جاء ذكرها بالتّفصيل في كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزّان الفاسي.

بعد سقوط الدولة الموحّدية قامت على أنقاضها ثلاث دول الحفصية بالمغرب الأدنى والزيانية بالمغرب الأوسط والمرينية بالمغرب الأقصى، وقد اهتم سلاطين بني حفص ببناء المساجد خاصّة بمدينة تونس عصمة الدولة، بحيث ذكر القِسُّ الإسباني مارمول كربخال أنه كان بالمدينة على هذا العهد بالإضافة إلى جامع الزيتونة عددًا من المساجد أصغر حجمًا منه، ومن أعمالهم المعمارية بالمدينة تجديد السلطان أبو زكرياء لأبواب مسجد الزيتونة، وبنائه

لجامع القصبة وصومعته ومساجد أخرى موّزعة بالمدينة وعلى أرباضها، ومن مساجد هذه الفترة أيضًا جامع باب البحر الذي شيّده السلطان الدّاعي سنة 682هـ.

امتدت عملية بناء المساجد خلال هذه الفترة إلى بعض مدن المغرب الأوسط، فقد جاء في كتاب "وصف إفريقيا" أنّه كان بمدينة بجاية مساجدًا كثيرة، كما شيّدوا مساجدًا أخرى بالقرى المجاورة لها حيث أشار الغبريني في ترجمته للأمير يحيي أبي زكرياء أنه ما من ناحية من النّواحي إلاّ وله فيها مسجدًا ومعلمًا ومن بينها مسجد قرية ملاّلة، وبمدينة عنّابة شيّد الحفصيون مساجدًا تضاف إلى التراث المعماري الذي تزخر به هذه المدينة نذكر منها مسجد القصبة أعلى المدينة.

كان للزيانيين أيضًا نصيب وافر من هذه العمارة، فقد جاء في كتاب " إفريقيا " للقس مارمول أنّه كان بمدينة تلمسان دار ملك بني زيّان عددًا من المساجد الفخمة ومجهزة بجميع ما يلزمها، بحيث اهتم السلطان يغمراسن بن زيّان بتجهيز كلّ من مسجد أغادير والمسجد الكبير بتلمسان ومسجد جزائر بني مزغنّى بالمآذن على الطّراز المغربي المألوف.

تواصلت هذه الحركة المعمارية من بعده حيث بنى سلاطين الدولة مساجدًا بمدينة تلمسان كمسجد سيدي بلحسن الذي شيّده السلطان أبي سعيد عثمان سنة 1283-1303م، ومسجد أولاد الإمام (مسجد سيدي براهيم) بجوار باب كَشوط بالجهة الغربية من المدينة، بناه السلطان أبو حمّو موسى الثاني.

أمّا المرينيون فقد عرفوا بصفة عامّة باهتمامهم بأعمال البناء، نذكر منها جامع قصبة مكناسة والمسجد الجامع بمدينة فاس الجديد الذين شيدهما السلطان يعقوب بن عبد الحق على التوالي سنة 674هـ/ 1276م وسنة 677هـ/ 1279م، ولما خلفه ابنه يوسف المنصور على سُدّة الحكم بنا جامع تَازَة سنة 693هـ/ 1295م وجامع المنصورة بتلمسان سنة 700هـ/

1302م، وبمدينة فاس شيّد السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحقّ جامع ابن برقوقة وجامع السمارين، وتمّ ذلك كلّه سنة 725هـ/ 1327م.

كما شيّد السلطان أبو الحسن خلال فترة حكمه عددًا من المساجد وقد قيّدها العلاّمة إبن مرزوق في كتابه " المسند " نذكر منها، مسجد الصّفارين ومسجد حلق النّعام بفاس، إضافة إلى ما شيّده من مساجد بفاس الجديدة وبمدينة سبتة وطنجة وسَلاَ وشَالَة وبقصبة مدينة تازة ومكناسة ومرّاكش بالمغرب الأقصى، وامتدت أعماله إلى المغرب الأوسط أين جدّد عمارة المسجد الأعظم بالمنصورة وبنى مساجدًا عديدة بها كالمسجد الذي كان عند باب المجاز وباب هنين وباب فاس، والجامع الذي بناه بجوار ضريح الشيخ أبي مدين شُعيب بن الحسن (ض) بالعبّاد، وله أيضا أعمالاً معمارية بالمدن المجاورة مثل جامع هنين وجامع مستغانم.

العناصر المعمارية المشكلة لعمارة المسجد:

يتكوّن المسجد بالإضافة إلى بيت الصلاة والمجنبتان والصّحن ورواق المؤخرة، بمجموعة من العناصر المعمارية التي لها وظيفة ودلالة رمزية دينية في هذه البناية.

المحراب:

هو الحنية المجوّفة الموجودة في جدار القبلة، ويُجمع معظم الباحثين على أنّ أوّل من ألحق هذا العُنصر بعمارة المسجد هو عمر بن عبد العزيز وذلك أثناء ولايته على المدينة المنوّرة على عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

استعمل المحراب ليساعد المصلّين في تحديد اتجاه القبلة، إضافة إلى ربح مساحة إضافية في بيت الصلاة كما له دورٌ في رفع صوت الإمام من خلال الصدى المنعكس النّاتج عن شكله المجوف.

استخدم المحراب في المساجد إمّا منفردًا مثل ما هو الحال بمعظم مساجد بلاد المغرب، أو بشكل متعدد على هيئة المساجد الفاطمية بمصر ومن أمثلتها مسجد الأزهر بالقاهرة، وظاهرة تعدّد المحاريب إمّا لرغبة زخرفية أو لضرورة وظيفية دينية وذلك لتعدّد المذاهب المتّبعة في المدينة والتّشارك في نفس المسجد.

اتّخذت المحاريب بعمارة المساجد أشكالا مختلفة منتظمة على هيئة مربّع أو مستطيل كمحراب مسجد سامراء، أو نصف دائرية مثل محراب جامع المشور الزياني بتلمسان، أو مضلّعة الشكل، هذا الأخير الذي شاع استعماله في المساجد المغربية ومن أمثلته محراب الجامع الكبير وجامع سيدي بومدين وجامع سيدي الحلوي من التراث المعماري المرابطي والمريني بمدينة تلمسان.

المنبر:

هو مرقاة الخاطب سُمي منبرًا لارتفاعه وعلوّه وأوّل من اتخذه بالمساجد هو النبيّ محمد (ص) سنة 7هـ بالمسجد النّبوي، وكان يتشكّل من ثلاث درجات من مادة الخشب، ومنذ ذلك العهد أصبح تقليدا متوارثًا بمساجد المسلمين، والمنابر على نوعين الثابتة والمتحرّكة هذه الأخيرة التي اتخذها في بداية الأمر مسلمي المغرب والأندلس وذلك لكسب مساحة إضافية بالمساجد.

المقصورة:

تضاربت آراء الباحثين حول أوّل من اتخذ المقاصير بالمساجد، إلاّ أنّهم أجمعوا على أن استعمالها مرتبط بالجانب الأمني وذلك لحماية الإمام من الأعداء، ولم يقتصر دورها على هذه الوظيفة فقط بل تعدّى إلى تقديم خدمات أخرى، حيث يقف فيها المؤذن ليرفع الأذان الثاني لصلاة الجمعة وبها يستريح الإمام.

السُدّة والعَنزة:

هي السّقيفة التي تبنى في حائط المسجد المقابل للمحراب والمنبر وتكون عادة من الخشب، وهي ترتفع فوق أرضية المسجد على أعمدة عالية وهي ثابتة، والغرض من بنائها تمكين المؤذن الذي يُبلّغ عن إمام الجماعة لانه يكون مطّلعا على حركات هذا الإمام فيرفع صوته بالتكبير والتحميد من بعده ليضبط النّاس صلاتهم مع صلاة إمامهم، ومن أمثلتها بالمساجد الإسلامية السدّة التي بجامع الأزهر بالقاهرة بمصر وسدة الجامع الكبير بتلمسان.

أقام المسلمون في بعض المساجد لأداء نفس الوظيفة محرابا رمزية (العنزة) في الصّحن عند نهاية بلاطة المحراب، يقف به إمام ثانٍ أو مؤذن يردد ابتهالات خطيب المسجد وتكبيره ويوجد له مثال بالجامع الكبير بتلمسان.

المئذنة:

تعرف أيضا بالمنارة والصومعة، أشتق اسمها من الفعل أذّن ومنه جاء الآذان وهي تعنى بالنداء للصلاة، وقد كانت فكرة المئذنة قائمة بالمسجد النبوي منذ عهد سيدنا النبي محمد (ص)، بحيث تذكر الدّراسات أنّه كان هناك أسطوان في دار عبد الله بن عمر في قبلة المسجد النبوي على شكل كتلة بنائية مربّعة.

أمّا عن تاريخ إنشائها تذكر الدّراسات أنّ أوّل مئذنة بنيت في العصر الإسلامي لكي يرفع عليها النّداء للآذان هي مئذنة جامع البصرة سنة 45هـ، أمّا ببلاد المغرب فمئذنة جامع القيروان هي أقدمها على الإطلاق، حيث شيّدها عقبة بن نافع (ض) بمسجده يوم اختط مدينة القيروان سنة 50هـ.

تعرّضت عمارة هذا المسجد لتجديدات وعمليات توسعة على عهود مختلفة بما فيها مئذنته التي جدّدت سنة 105هـ على عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وقد اتّخذت شكلا مربعا تقليدا لمآذن الجامع الأموي بدمشق والمؤرخة بسنة 86هـ.

انتقل هذا المخطط من مئذنة القيروان إلى باقي مآذن مساجد المغرب والأندلس، مع الحرص على استعمالها منفردة على عكس الكثير من مساجد المشرق الإسلامي، ومن أمثلة هذا النوع ببلاد المغرب مئذنة جامع القرويين بفاس ومئذنة قلعة بني حمّاد، ومئذنة جامع الكتبية بمراكش ومئذنة جامع حسّان بالرّباط وجامع إشبيلية بالأندلس من العهد الموحدي، ومآذن الجامع المرابطي بمدينة الجزائر وبجامع أغادير وبالجامع الكبير وبجامع المنصورة وسيدي بومدين من العهد الزياني والمريني بتلمسان.

استعمل المسلمون في مساجدهم أشكالاً أخرى من المآذن، نذكر منها الشكل الحلزوني بكل من جامع سامراء وأبي دُلَف من العصر العباسي، والمئذنة المضلّعة والأسطوانية البدن، وقد أستعمل النّموذجين معًا بجامع الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة من العهد الفاطمي، وسجّل هذين النّوعين استعمالاً واسعًا بالعمارة المشرقية في حين صنع جامع مدينة رقَّادة من العهد الأغلبي الاستثناء بين مساجد المغرب والأندلس بضمّه لمئذنة أسطوانية البدن تقليدًا للمئذنة العبّاسية في حين استعملت المئذنة المضلعة بمسجد مدينة اجدابية بافريقية من العهد الفاطمي.

الخصائص المعمارية للمساجد المغربية

الخصائص المعمارية للمساجد متنوعة ومتصلة بعوامل مختلفة طبيعية ومعمارية ودينية، وعليه نذكر منها:

. إستعمل المسلمون بصفة عامة في الفترة الوسيطة المساجد الصحنية أسوة بتخطيط المسجد النبوي بالمدينة المنورة ومساجد المدن المبكرة على عهد الخلافة الراشدة، بكل من البصرة والكوفة، وبالمساجد الأموية بالمسجد الجامع بمدينة واسط (84هـ) و المسجد الجامع بدمشق (87هـ)، ومنها إنتقل هذا التقليد المعماري إلى مساجد بلاد المغرب التي يعتبر جامع القيروان أقدم نماذجها على الإطلاق.

إن إعتماد هذا التخطيط متصل بطبيعة مناخ المنطقة الحار، بحيث يعتبر الصحن معدلا حراريا ويساعد على الإضاءة والتهوية وتقليل الضجيج بعزل الداخل عن الخارج خاصة أن هذا النوع من العمائر تقام في أكبر التجمعات السكانية بالمدينة، إضافة إلى أدوار أخرى للصحن كامتصاص الفائض من المصلين خلال أداء الصلوات الجامعة، وبه توجد الفسقيات وأحواض الوضوء.

. عدم تعدد المحاريب على عكس بعض المساجد المشرقية التي أستعملت فيها لسبب زخرفي أو لتعدد المذاهب في المدينة الواحدة والإشتراك في نفس المسجد على هيأة المدارس ذات الأواوين في نفس المنطقة.

. إتساع بلاطة المحراب مقارنة بالبلاطات الاخرى في عمارة المساجد من أسبابها الرئيسية تحضير قاعدة مربعة لإنشاء قبة المحراب وقبة البهو أحيانا ومن أمثلتها مسجد القيروان بداية من الفترة الأغلبية و المسجد الأموي بقرطبة.

كما يتميز الأسكوب الأول الموازي لجدار القبلة في المساجد بالإتساع لنفس الغرض حيث تتوفر بعض المساجد على قبتين أوأكثر موزعتين على جانبي الأسكوب الأول من بيت الصلاة مثل المسجد الجامع بسلا ومسجد الكتبية ومسجد القصبة بمراكش، ومن جانب آخر ليتناسب مع المنبر والمحراب والمقصورة.

. إستعمال واسع للقباب بالمساجد المغربية خلال الفترة الموحدية مثل مسجد تنمل ومسجد الكتبية ومسجد القصبة بمراكش ومسجد سلا.

. إستعمال الميضأة بشكل منعزل عن عمارة المسجد ومن أمثلتها القائمة ميضاة مسجد القرويين بفاس.

. إستعمال المئذنة المربعة التي تعتبر مئذنة مسجد القيروان أقدم نماذجها بالمغرب الإسلامي، حيث يمتد تاريخ إستعمالها إلى الفترة الأموية وتحديدا بالمسجد الأموي بدمشق، وقد ظهر تأثير

الطراز العباسي والفاطمي في هذا العنصر ولكن بشكل محدود جدا حيث إقتصر إستعمال المئذنة المدورة على المسجد الجامع بمدينة رقادة الأغلبية والمئذنة المضلعة بمسجد مدينة اجدابية، كما لا نفوت فرصة الإشارة إلى ظاهرة هامة تتمثل في خلو المساجد المرابطية من هذا العنصر.

. إستعمال مئذنة واحدة مع إختلاف مواضعها بعمارة المساجد حيث شغلت مؤخرة المسجد مثل القيروان وقرطبة والمسجد المرابطي بتلمسان والمسجد الموحدي بالرباط ومسجد المنصورة المريني بتلمسان، أو بالأركان ومن نماذجها المسجد المرابطي بالجزائر ومسجد تازة ومسجد الكتبية الموحدي بمراكش ومسجد الحمراء بفاس ومسجد العباد بتلمسان خلال الفترة المرينية، كما يمكن أن تحتل جانب المسجد مثل مسجد سلا ومسجد المشور الزياني بتلمسان.

. إستعمال السقوف الجمالونية بشكل واسع في بلاد المغرب والأندلس على طريقة المساجد الأموية ببلاد الشام، ومن أمثلتها مسجد الزيتونة ومسجد القرويين بفاس ومسجد الكتبية بمراكش والمسجد المرابطي بتلمسان ومسجد قرطبة بالأندلس، ولإستعمال هذا العنصر علاقة بالعامل المناخي.

. تعدد الأبواب وذلك لتقريبها من السكان و تسهيل الوصول إليها من الأحياء السكنية والأسواق وتخفيف الضغط عند الدخول الى المسجد و عند الخروج منه، كما أن تعددها له علاقة بمساحة المسجد أو بتخصيص عدد منها للنساء وقد يكون لتعددها بعد ديني رمزي.

المصادر والمراجع:

- المرّاكشي ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة، ج.س. كولان و إ. ليقي بروفنسال، ج. 01، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983.
- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج، 04، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.
- البكري عبيد الله، **المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، د.ت.
- بن مامي (محمّد الباجي)، " أسواق مدينة تونس "، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية، العدد 12، تونس، 1998.
- الرّقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، الطبعة الأولى، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994.
- روجي إدريس الهادي، **الدولة الصنهاجية**، ج02، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992.
- ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيت الأفكار الدولية، د.ت.
- الشيخ المهدي البوعبدلي، **تاريخ المدن**، جمع وإعداد عبد الرحمان دويب، ج02، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2013.
- الإدريسي الشريف، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.
- الوزان الحسن بن محمد الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر، ج02، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.
- مارسي وليم وجورج، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تقديم وترجمة، مراد بلعيد وآخرون، ط01، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
- الفاسي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.
- كربخال مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجّي وآخرون، ج02، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1984.
- ابن الشمّاع أبو عبد الله محمد، **الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري، الدّار العربية للكتاب، 1984.

- الزركشي (أبي عبد الله محمد)، **تاريخ الدّولتين الموحدية و الحفصية**، تحقيق وتعليق محمد ماضوي، المكتبة العتيقة، تونس، د.ت.

- بوطبة (محفوظ)، **أطلس العمارة العسكرية بالجزائر في العهد العثماني**، أطروحة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2017-2018.

- التّنسي (محمّد بن عبد الله)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق محمود أغا أبو عياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.

- بوطبة (محفوظ)، " المنشآت المعمارية لسلاطين بني زيّان بالمغرب الأوسط "، مجلّة الدراسات الأثرية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2021.

- ابن مرزوق، **المسند الصّحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

عمارة المدارس بالمغرب الإسلامي

تاريخ ظهور المدارس النظامية ببلاد المغرب الإسلامي:

المدرسة من المنشآت الفكرية والدينية الإسلامية، ظهرت بالمشرق الإسلامي في خورسان ونصابور بإيران بأمر من الوزير السلجوقي نظام الملك، ومنهما امتدت إلى باقي مناطق إيران، ثم انتقلت إلى العراق التي أقام بها نظام الملك مجموعة من المدارس النظامية وكان ذلك في القرن 5هـ/11م.

وصل نظام المدارس من بغداد إلى الشام حيث عدد المؤرخون والرحالة الكثير منها في حلب وحماه وحمص ودمشق، وقد شيد عدد هام منها على عهد نور الدين زنكي الذي شيد 11 مدرسة في دمشق، دون احتساب أعمال أمرائه وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي الذي بنى بدوره 8 مدارس نذكر منها المدرسة المقدمية والصالحية والعزيزية.

نقل صلاح الدين هذا الصرح المعماري العلمي من الشام إلى مصر حيث خصصت للمذاهب السنية، فقد أقام بالقاهرة 7 مدارس من مجمل مدارسها الكثيرة كالمدرسة الناصرية والقمحية والقطبية.

أما ببلاد المغرب ، فأول من عرف المدرسة في الفترة المتاخرة كان بإفريقية الحفصية وذلك بحكم الوحدة الجغرافية والعلاقات السياسية الجيدة بمصر، بحيث قامت أول مدرسة حفصية على يد السلطان أبي زكرياء حوالي 636هـ/1238م تدعي بالمدرسة الشماعية، وتلتها العديد من المدارس نذكر منها المدرسة العنقية وابن تافرجين و المنتصرية وغيرها، وتواصلت عملية التشييد في المراحل اللاحقة إلى غاية القرن 9هـ/15م.

إن المتتبع لتاريخ المدارس المغربية يلاحظ أن المرينين كان لهم حظا وافرا في تشييد المدارس أولها مدرسة الصفارين التي شيدها السلطان أبو يعقوب بن عبد الحق670هـ/1271م، ثم تلتها عملية بناء العديد منها مثل مدرسة دار المخزن (مدرسة فاس

الجديد)، ومدرسة الصهريج والسبعيين والعطاريين، هذه المدارس التي تعد من إنجازات السلطان أبو سعيد عثمان، وقد شاركه ولي عهده الأمير أبي الحسن في إنشاء البعض منها. واصل السلطان أبو الحسن درب أبيه حيث شهدت فترة حكمه ثورة معمارية في تشييد المدارس بالمغرب الأقصى والأوسط، ومن مجمل أعماله المدرسة المصباحية بفاس ومدرسة تازى ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفي وأزمور وأسافي، وأغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بتلمسان.

كما أن المهتم بالمدارس المغربية لا يمكنه أن يغفل عن إنجازات السلطان أبي عثمان فارس بن الحسن في هذا المجال بإنشائه للمدرسة البوعنانية بفاس والمدرسة البوعنانية بمدينة مكناس.

اهتم بنو زيان على غرار الحفصيين والمرنيين بتشييد المدارس تتصدرها مدرسة أولاد الإمام التي شيدها السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710هـ/1310م، ثم تلتها المدرسة التاشفينية ، فالمدرسة اليعقوبية من عمل السلطان أبو حمو موسى الثاني 765هـ.

أسباب ظهور المدارس:

يعود سبب ظهور المدرسة بدول المغرب الإسلامي إلى أسباب عديدة، نذكر منها التصدي لنظام الإمامة الموحدي وبعث الحركة الفكرية والجهادية ضد الصليبين. كما هناك علاقة لظهورها بالمساجد التي ضاقت بالمصلين نتيجة الكثافة السكانية التي عرفتها المدن، ولتخفيف الضغط عنها أصبحت بعض هذه المدارس تؤدى فيها الصلاة الجماعة والصلوات الخمس مثل المدرسة المنتصرية بتونس، وقد عرفت البلاد الإسلامية هذه الظاهرة بمدارس المشرق الإسلامي وتحديدا بالمدرسة المستنصرية ببغداد.

ومن هذه الأسباب أيضا حب الحكام لإنشاء المدارس تخليدا لاسمائهم وأسماء أسلافهم مثل المدرسة اليعقوبية بتلمسان، أو لمستواهم العلمي الراقي الذي فرض عليهم إقامة هذه العمائر بكثرة مثل السلطان أبي الحسن المريني، إضافة إلى غاية أخرى تتمثل في إيواء الفقهاء والطلبة وهذا ما يميزها عن المساجد.

مسميات المدرسة المغربية:

اتخذت المدرسة المغربية على غرار المدرسة المشرقية أسماء مختلفة كأسماء المشاهير من الأعلام السياسية والعلمية مثل المدرسة التاشفينية واليعقوبية والبوعنانية، المصباحية، العصفورية ، أولاد الإمام، أو نسبة إلى الأسواق التي أقيمت بها مثل: المدرسة الشماعية والصفارين والعطارين، وقد يكون اسمها مرتبطا بتاريخ إنشائها مثل المدرسة القديمة (أولاد الإمام) والمدرسة الجديدة (التاشفينية)، ويمكن أن تحمل اسمها من الدروس التي تقام بها مثل مدرسة السباعيين نسبة إلى القراءات السبع للقرآن الكريم التي تدرس بها.

الدراسة الوصفية لنماذج من المدارس المغربية:

المدرسة الشماعية بتونس:

موقعها وتاريخها:

شيدت بجوار جامع الزيتونة على جانب سوق البلاغجية من طرف السلطان الحفصي أبو زكرياء سنة 636هـ/1238م، وسميت بالشماعية نسبة لسوق الشمع الذي شيدت بأحد أزقته.

وصف مخطط المدرسة:

تتشكل المدرسة من طابقين، نصل إلى الطابق الأرضي عبر مدخل يتوسط الواجهة الشمالية لها، ومن خلاله نلج إلى صحن مكشوف.

تحيط بالصحن أروقة تصل بينه وبين الوحدات المعمارية المحيطة به، ومنها بيت الصلاة بالواجهة الجنوبية الشرقية حيث تشغل 97.24م^2 من المساحة الإجمالية للمدرسة ، كما يلفت انتباهنا وجود إيوانين على جانبي الصحن من الناحية الشرقية والغربية.

اتخذ الطابق العلوي لها تخطيط مماثلا لطابقها الأرضي باستثناء بيت الصلاة الذي جاء أكثر اتساعا من نظيره بالطابق السفلي، ومعظم الوحدات هذا الطابق عبارة عن غرف للطلبة.

المدرسة التاشفينية:

موقعها وتاريخها:

شيدها السلطان الزياني أبو تاشفين بجوار المسجد الكبير بتلمسان 1327م، تعرضت للهدم جراء الحروب والحصار الذي لحق بالمدينة فأعاد ترميمها السليطان أبو العباس بن موسى خلال فترة حكمه.

وصف مخطط المدرسة:

إتخذت المدرسة شكلا منتظما ممتدا بشكل طولي، يتوسطها صحن مكشوف تحيط به من جهاته الأربعة أروقة تتقدم مجموعة من الغرف وبيت الصلاة. يشغل بيت الصلاة الواجهة الجنوبية للمدرسة، وقد قسمت إلى ثلاث قاعات الوسطى منها بها محراب مضلع وتعلوها قبة مضلعة، في حين القاعتين الجانبيتين يعلوهما سقف جمالوني الشكل.

كما تضم عمارة المدرسة مئذنة مربعة الشكل، كانت تشغل الركن الجنوبي الشرقي للواجهة الجنوبية.

المدرسة البوعنانية بفاس:

موقعها وتاريخها:

اتخذت المدرسة موضعا بحي تجاري يعرف بسوق القصر على خلاف سابقاتها التي كانت بجوار المساجد الجامعة (مسجد القرويين و الأندلسيين) وهي من عمل السلطان أبي عثمان فارس بن الحسن.

وصف مخطط المدرسة:

تتكون المدرسة من طابقين ولها مدخلين أحدهما ثانوي بالركن الشمالي الشرقي والثاني يتوسط الواجهة الشمالية ويعرف بباب الحفاة، يؤدي هذا الأخير مباشرة إلى الصحن.

للصحن شكلا مربعا طول كل ضلع 17.75م، يتوسطه حوض ماء، ويطل عليه من جانبيه الشرقي والغربي إيوانين متماثلين من حيث الشكل والمقاسات، يشغل الواحد منهما مساحة تقدر 27.56م^2.

تضم المدرسة ميضأة موضعها بجانب الإيوان الشرقي يتوسطها صحن صغير به حوض ماء تحيط به مجموعة من بيوت الخلاء.

يحتل بيت الصلاة الجهة الجنوبية من المدرسة لها شكل مستطيل يتوسط جدار القبلة لها محراب مضلع الشكل، ويتكون بيت الصلاة من أسكوبين و 5 بلاطات عمودية على جدار القبلة، وجدارها الشمالي مفتوح على الصحن ببائكة تتكون من 5 عقود محمولة على 4 دعامات صليبية الشكل، وكان لبيت الصلاة منبرا ومقصورة كونها تؤدى بها صلاة الجمعة.

نصل إلى الطابق العلوي بواسطة سلمين أحدهما في الركن الشمالي الغربي والأخر في الركن المقابل في نفس الواجهة، يفضيان مباشرة إلى رواق يفصل بين عدد من غرف الطلبة، ومنه نصل إلى الصحن الذي يطل عليه إيوانين مماثلين للايوانين الأرضيين ، إلا انه فتح بجدرانهما مجموعة من الفتحات واسعة من الخارج وضيقة من الداخل الهدف منها الإضاءة الجيدة لهذا الجزء من البناء.

يشغل الجهة الجنوبية من الطابق العلوي بيت الصلاة على نفس مخطط بيت الصلاة بالطابق الأرضي، وقد زود جدار القبلة لها بعدد من الفتحات على هيئة فتحات الإضاءة السابقة، كما تتوفر الجوانب الثلاثة للمدرسة على عدد من الغرف تصل وتفصل بينها الأروقة، ويوجد في الركن الشمالي الغربي لها مئذنة مربعة الشكل.

الخصائص المعمارية للمدرسة المغربية:

سجلنا تمركز مدارس المغرب الإسلامي بالقرب من المساجد الجامعة والأسواق حيث تعتبر هذه الأماكن أكبر مراكز التجمعات السكانية بالمدينة الإسلامية، مثل المدرسة الشماعية التي تحتل موضعا من سوق البلاغجية بجوار جامع الزيتونة، والمدرسة العنقية التي كانت بالناحية الشمالية الغربية له.

وقد خضعت المدارس المرينية والزيانية لهذا التوزيع حيث شيدت مدرسة الصهريج والسبعيين قرب مسجد الأندلسيين، ومدرسة العطارين والمدرسة المصباحية قرب مسجد القرويين بفاس، والمدرسة التاشفينية واليعقوبية بالقرب من الجامع الكبير بتلمسان.

أما المدارس التي كانت تشغل مواضعا من الأسواق هي الأخرى كثيرة نذكر منها المدرسة الشماعية والعصفورية بسوق العطارين بتونس، ومدرسة الصفارين والمدرسة البوعنانية بفاس.

في حين نجد البعض منها بالأحياء السكانية أو بارباض المدينة خارج أسوارها مثل مدرسة العباد بتلمسان، أو بالقرب من أبوابها كمدرسة أولاد الإمام بنفس المدينة.

إن ظاهرة إنشاء المدارس بمراكز المدينة وبصفة خاصة حيث توجد المساجد الجامعة مألوفة في المشرق الإسلامي كالمدرسة العادلية والزاهرية ومدرسة دار الحديث والنورية بجوار الجامع الأموي بدمشق، ونفس الظاهرة لاحظناها بالقاهرة حيث كانت معظم المدارس تحتل المجال المحصور بين الجامع الأزهر جنوبا وجامع الأقمر شمالا، نذكر منها المدرسة الكاملية والصلاحية والزاهرية ومدرسة السلطان برقوق، والبعض الأخر كان بجوار جامع ابن طولون جنوب المدينة.

تعتبر المدرسة المغربية تطورا لعمارة المسجد، كونها تشترك معه في وحدات وعناصر هامة مثل بيت الصلاة، الصحن، المحراب، المئذنة...إلخ، بحيث لم تختلف في عمارتها بصفة عامة عن المساجد إلا بمجموعة من التعديلات التي دخلت على مخططها بتأثير الحاجة والوظيفة، كإضافة الحجرات والغرف لسكنى الطلبة والأساتذة المنقطعين إلى العلم.

أغلب المدارس تتشكل من طابقين وهذا التخطيط يوافق تخطيط أنواع أخرى من العمائر مثل البنايات التجارية، ما يدل على وجود رؤية سديدة في استغلال أراضي البناء بالتوجه إلى البناء العمودي، خاصة أن هذه المنشآت ألحقت بفترات متأخرة للحكم الإسلامي لبلاد المغرب (حفصية، مرينية، زيانية) بمدن قديمة ضاقت بمبانيها المحصورة بين أسوارها.

بعد عمليات بحث قمنا بها حول المدرسة المغربية خلصنا إلى أن بلاد المغرب تكاد تخلو من مدارس الأضرحة، باستثناء المدرسة اليعقوبية بتلمسان، وفي المقابل كان هذا النمط قائما في سوريا بكثرة ممثلا بالمدارس الزنكية كالمدرسة العادلية والنورية بدمشق، كما شاع تشييدها

بمصر نذكر منها مدرسة السلطان صالح ناغم الدين أيوب ومدرسة السلطان الناصر محمد قلاوون ومدرسة زين الدين يوسف بالقاهرة.

الميزة المشتركة بين مدارس المغرب الإسلامي بيت الصلاة التي تتصدر عمارة المدرسة، حيث تشغل معظم الحالات الجهة الجنوبية للصحن إلا أنها تختلف في تخطيطها، فمنها التي جاءت على شكل وحدة منفردة كالمدرسة العنقية والشماعية بتونس ومدرسة العباد بتلمسان ومدرسة الصفارين والعطارين بفاس بالمغرب الأقصى.

جاء تخطيط النوع الثاني من بيوت الصلاة على هيئة قاعة الصلاة بالمساجد المغربية تتشكل من أساكيب وبلاطات عمودية على جدار القبلة، بحيث تكون بلاطة المحراب أوسع من البلاطات الجانبية، وقد سجلنا ذلك بكل من مدارس تونس والمغرب الأقصى نذكر منها المدرسة المنتصرية التي جاءت شبيهة بقاعة الصلاة بمدرسة السلطان قلاوون ومدرسة السلطان برقوق بالقاهرة، إضافة إلى المدرسة البوعنانية بفاس إلا أن هذه الأخيرة ممتدة بشكل أفقي على عكس مدرسة الشماعية التي جاء عمقها أكبر من طولها.

تشترك المدارس المغربية أيضا في الصحن المكشوف الذي يعتبر ميزة رئيسية في العمارة الإسلامية عامة والدينية خاصة، حيث يشغل موضعا وسطا ويتربع على مساحة واسعة منها، يضم في وسطه حوضا مائيا، هذا المشهد المعماري لايفارق المدارس المرينية بفاس وقد انتقل هذا التقليد المعماري إلى مدارس المغرب الأوسط بمدرسة العباد بتلمسان، إلا أننا لم نسجل استعماله في المدارس الحفصية بتونس.

استعمل الصحن للحاجة والوظيفة كونه يمكن استغلاله للصلاة والتدريس عند الحاجة، إضافة إلى دوره الوظيفي باعتباره المعدل الحراري المناسب لمناخ هذه المناطق، دون أن نغفل وظائفه الأخرى من إضاءة وتقليل الضجيج خاصة أن أغلب المدارس تحتل مراكز المدينة حيث توجد أكبر التجمعات السكانية عند المساجد والاسواق.

يختلف عدد بيوت الطلبة ومساحتها من مدرسة إلى أخرى حسب اختلاف حجم المدرسة نفسه فعددها في مدرسة الصفارين 9 حجرات، بينما هي 23 في المصباحية ومقاساتها شديدة الاختلاف، و16 حجرة بكل من المدرسة التاشفينية ومدرسة العباد.

تتوفر المدارس أيضا على الميضأة، وهي أقسام مهمة تتصل بالطهارة وتشغل جوانب مختلفة من المدرسة، إما بجوار المدخل خارج هيكل المدرسة بمدرسة العباد، وبجوار بيت الصلاة بمدرسة الصفارين، وخارج هيكل المدرسة بمدرسة السباعيين والمدرسة المصباحية والبوعنانية بفاس.

اتخذت الميضاة مظهرا تخطيطا على شكل كتلة معمارية مربعة أو مستطيلة يتوسطها صحن صغير به حوض مائي، وتلتف حول الصحن من جهاته الأربعة مراحيض أبوابها مفتوحة عليه.

استعمال واسع للأروقة المحيطة بالصحن على نمط المساكن والقصور وغيرها، هذه الظاهرة المعمارية طغت على المدرسة المغربية نذكر منها المدرسة العنقية والشماعية والتاشفينية ومدرسة العباد والصهريج والسبعيين والبوعنانية ومدرسة أبو الحسن بسلا، في المقابل تكاد تخلو منها مدارس المشرق الإسلامي والتي نذكر نموذجا لها بمدرسة الفردوس بحلب بسوريا، والهدف من استعمال هذه الوحدة المعمارية وظيفي وذلك لتكييف هذا النوع من العمائر مع مناخ المنطقة كالحماية من أشعة الشمس والأمطار، كما يعتبر وسطا مناسبا للحركة بين مرافق البناية.

استعمال الأواوين بعمارة المدرسة يقتصر على المدرسة البوعنانية بفاس والمدرسة الشماعية بتونس، حيث يوجد بكل منهما إيوانين على جانبي الصحن الشرقي والغربي، والمدرسة المنتصرية التي تتوفر على أربعة أواوين هذا التقليد المعماري فارسي الأصل ومشرقي التأثير، استعمل لإكساب الصحن مساحة إضافية ليوظف في التدريس والمبيت عند الحاجة، كما أن لاستعماله علاقة بالتعديل المناخي للبناية ففيه تخف حرارة الصيف ويلطف الهواء.

كما أن لإدماج الإيوان بعمارة المدرسة أبعاد دينية مذهبية، وهذه الميزة تختص بها المدارس المشرقية دون المغربية لتعدد المذاهب بها، كمدرسة السلطان حسن بالقاهرة بها أربعة أواوين مخصصة للمذاهب الأربعة (حنفي، صفوي، حنبلي، مالكي).

لم تشهد المدرسة المغربية تعدد المحاريب التي عرفت ببعض مساجد ومدارس المشرق الإسلامي، حيث اشتملت على محراب واحد يتوسط جدار القبلة وقد غلب على معظمها الشكل المضلع بمدارس تلمسان وفاس في حين استعمل الحفصيون المحراب النصف الدائري على هيئة محراب مدارس القاهرة ودمشق.

إن استخدام المئذنة في عمارة المدارس المغربية شمل أربعة نماذج موزعة بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط نذكر منها المدرسة التاشفينية بتلمسان ومدرسة الصفارين والبوعنانية بفاس، واستعمال المئذنة بهذه النماذج دليل على استغلالها كجامع خطبة، في المقابل جاءت المدارس الحفصية مجردة من هذا العنصر المعماري، إلا أن ذلك لم يمنع استعمال البعض منها كمساجد أحياء لاداء الصلوات الخمس مثل المدرسة المنتصرية، وقد اتخذت هذه المآذن شكلا مربعا على النمط المغربي الأندلسي.

المصادر والمراجع:

. إبن مريم (أبو عبد الله محمد)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

. التنسي (محمد بن عبد الله)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق، محمود آغا بو عياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. التلمساني (محمد إبن مرزوق)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

. مارسي (وليم وجورج)، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تقديم وترجمة، مراد بلعيد وآخرون، ط. 01، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

. لوطورنو (روجي)، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. الوزان الفاسي (الحسن بن محمد) ، **وصف إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 01، ط. 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

. البلنسي (محمد العبدري) ، **الرحلة المغربية**، تقديم، سعد بوفلالة، ط.01، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.

. مارمول (كربخال)، **إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي وآخرون، ج.02، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1984.

. بن قربة (صالح وآخرون)، **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

. لعرج (عبد العزيز)، " النظام المعماري لمدارس المغرب "، مجلة آثار، العدد: 08، 2009 .

. بوطبة (محفوظ)، " المنشآت المعمارية لسلاطين بني زيان بالمغرب الأوسط "، (مقال غير منشور).

- Brosselard (Charles) ; << Les inscriptions arabes de Tlemcen >>,in : revue africaine, N 09 / 1858.
- Brosselard (Charles) ; << Les inscriptions arabes de Tlemcen >>,in : revue africaine, N 15 / 1859.
- Golvin (Lucien) ; **La madrasa medievale**, Edsud, Paris,19995.
- Berges ; **Tlemcen ancienne capitale du Royaume de se Nom**, Paris, 1859.
- Marcais (W. et G.) ; **Les moniments arabes de tlemcen**, Paris, 1859.

عمارة المساكن ببلاد المغرب الإسلامي

تمهيد:

تشغل الدّور أكبر مساحة من النسيج المعماري للمدينة الإسلامي، الا ان النصوص المفردة لها في فترات مختلفة في كتب المؤرّخين و الرّحالة و الجغرافيين العرب عامة و المغاربة خاصة قليلة ، و ما قيل عنها لا يعدو يتجاوز الإشارة إليها او تعدادها رغم توفر أغلب المدن الموصوفة مثل مرّاكش و فاس و قسنطينة و بجاية و تلمسان و تونس على مؤشرات اقتصادية جيّدة تؤكّد على الرخاء الذي كان يعيشه سكّان هذه المدن ما ينعكس بلا ريب إيجابيا على عمارة المدينة ومن ضمنها العمارة السكنية.

كما أن شح المعلومات حول هذا النوع من العمائر متصل بنقص المادة الاثرية لتعرض كثير من المدن التاريخية المغربية وعلى رأسها المغرب الأوسط إلى طمس معالمها الأصلية بفعل فاعل تتقدمها الحركة الاستعمارية تحت ذرائع أمنية وحضارية مثل مدينة بجاية التي تسبب الاحتلال الاسباني والفرنسي في هدم نحو سبعين بالمائة من نسيجها المعماري الاصلي.

يضاف الى السّبب السّالف الذّكر قلّة الحفريات الاثرية الخاصة بهذه الفترة ، و محدودية نتائجها حيث تقتصر في الغالب على معالم محدّدة أسوار مساجد جامعة و قصور، و يكفي ان أستشهد على ذلك بمدينة قلعة بني حماد و أشير و المنصورة بتلمسان بالمغرب الأوسط، إضافة إلى بقاء الكثير من المدن مخفية تحت انقاضها أو مفقودة مثل مدينة سوق إبراهيم و مدينة ماما و غيرها.

العوامل المؤثرة في تخطيط العمارة السكنية:

العامل الجغرافي:

للعامل الجغرافي تأثير واضح على العمارة السكنية سواء من حيث مخططها أو العناصر المعمارية و مواد و تقنيات البناء المستعملة.

يظهر تأثير العامل التّضاريسي على هذا النوع من المباني مثلا في ضيق المباني أو اتجاهها العمودي، و ذلك لنقص المساحة المخصصة للبناء في ظلّ نمو سكاني سريع و انحصار عمران المدينة داخل أسوارها.

كما يمكن أن تؤثر التركيبة الجيولوجية لأرضية التشييد في تخطيط المبنى من خلال البناء على طابق واحد أو أكثر وذلك مرتبط بهشاشة الأرضية من عدمها و نوعية الخشب المستعملة في تشكيل السقوف، و إلى ذلك أشار إبن أبي زرع في وصفه لدور مدينة فاس بقوله " و دور مدينة فاس أكثرها على طابقين بالأعلى و الأسفل، و منها ما يكون على ثلاث طبقات وذلك لعقد تربتهم، و كثرة خشب الأرز عندهم و هو أطيب خشب الأرض يعمّر العود منه في سقف البيت ألف سنة لا يعفن و لايسوّس ولا يعتريه شيء مالم يصبه ماء.

يظهر تأثير العامل التضاريسي أيضا في شيوع المادّة البنائية المستعملة، حسب توفرها بموقع البناء مثل الطوب و الحجارة و يمتد هذا التأثير إلى اختيار تقنية البناء المستعملة، و يتجلى ذلك في إختلاف تقنية بناء الأساسات بين الأرضية المائلة والمستوية مثل مدينة أشير الزّيرية بالمغرب الأوسط.

العامل المناخي هو الاخر من العوامل الجغرافية التي يظهر تأثيرها واضحا على العمارة السكنية، بحيث أملت على البنّاء تكييف المساكن حسب مناخ المنطقة التي تتميز بجوها البارد شتاءا و الحار صيفا، و ذلك باستعمال الصّحون و السّطوح و السّقوف المائلة، إضافة إلى

إختيار مواد و تقنيات البناء المناسبة كمواد البناء العازلة مثل الطوب و الاجر و الحصى و غيرها و بناء الأساسات بالحجارة و الزيادة في سمك الجدران ...الخ.

العامل الديني:

تتجلى تأثيرات الشريعة الإسلامية (القران و السنة النبوية الشريفة) على عمارة المساكن في عدة مظاهر معمارية، و المقصد منها بالدّرجة الأولى حفظ العرض و النفس، وقد حدّدت في كتب فقه العمران الإسلامي بدقّة و وضوح ككتاب " أحكام البنيان " لابني الرامي الذي عاصر قيام الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى.

تتضح هذه التأثيرات مثلا في عدم التطاول في البنيان الا للضرورة وفي تراص المساكن و بساطتها من الخارج، و في الحرص على توجيه المبنى نحو الداخل و إلى الشوارع الثانوية و الغير النّافذة الأقلّ حركة، إضافة الى جعل المداخل متناكبة و منكسرة، وقلة الفتحات بالواجهة الخارجية، واستعمال المشربيات و غيرها من المظاهر التي توفر الخصوصية لمستعملي هذه المساكن.

العامل الاقتصادي:

لا يختلف اثنان على أنّ الرّخاء الاقتصادي للدولة له إنعكاسات إيجابية على حركة العمران بصفة عامة بما فيها المباني السكنية، و احسن مثال على ذلك المدينة التجارية الزيانية هنين التي تعكس التأثير الاقتصادي على عمارة المبنى من الناحية المعمارية و الزخرفية، ما جعلها تنال اعجاب حسن الوزّن الفاسي على حساب العديد من المدن المغربية بما فيها مدينة تلمسان عاصمة بني زيّان نفسها.

العامل الأمني:

لا يختلف العامل الأمني عن سابقه في التّأثير على حركة العمارة و العمران سلبا او ايجابيّا، و من مظاهر تأثيره على العمارة السكنية توجيه المساكن نحو الشوارع الغير النافذة و تزويدها

بأبواب مشكّلة ما يعرف بالدّروب، تغلق عند الحاجة و في أوقات معلومة، كما تظهر أيضا في إستغلال خلفيات الاحياء السكنية عند أطراف المدينة مشكلة سورا لها بفضل تراص مساكنها، و هذه الظاهرة معروفة بالبلاد الإسلامية وأقدم ظهور لها في التاريخ الإسلامي كان بالمدينة المنورة على عهد سيدنا النبي محمّد صلى الله عليه و سلم، و قد وقفنا عليها ميدانيا بقلعة هوّارة الزيانية بالمغرب الأوسط.

كما ينتج عن العامل الأمني استعمال عناصر معمارية في عمارة الدّور لجعلها أكثر أمنا مثل الشّبابيك المعدنية في النوافذ و أعلا الصّحن، و من امثلة ذلك دور كل من بني ميزاب بغرداية بالمغرب الأوسط و فاس بالمغرب الأقصى.

نذكر إضافة الى الإجراءات السابقة استعمال السلالم المتحركة للوصول الى الطوابق العلوية لمساكن مدينة فاس و نزعها عند الضرورة، نظرا للأوضاع الأمنية المتردّية التي شهدتها المدينة في بعض مراحلها الحافلة بالأحداث التاريخية الهامّة.

وصف مخطّط المسكن:

رغم اختلاف المساكن في تعداد طوابقها و حجمها ومواضعها من المدينة الاسلامية الا أنّها تشترك فيما بينها في تخطيطها العام.

يتخذ المسكن بصفة عامة شكلا منتظما، نلج اليه عبر مدخل منكسر أو مباشر يؤدي الى صحن مكشوف بعد عبور السقيفة.

يحتل الصّحن وسط الدّار بمساحة واسعة مقارنة بحجم المنزل، يتوفر على أحواض مائية و فسقيات مثل مساكن مدينة فاس أو ابار مثل مدينة هنين و تحيط به أروقة ترتكز واجهاتها المطلّة على الصحن على بوائك من الأعمدة والعقود، و تتوزع خلف هذه الأروقة وحدات و مرافق خدمية مختلفة.

نصل الى الطابق العلوي عبر سلّم يحتل أحد أركان الصحن على هيئة الأروقة السفلية وظيفته التنقل بين مرافق البيت في قسمه العلوي إضافة الى حمايتها من المؤثرات الطبيعية.

يعلو المسكن سقف جمالوني او مسطّح، نصل الى هذا الاخير عبر سلّم على غرار الطابق العلوي، و يحيط به جدار ساتر لحفظ خصوصية المسكن و حقّ الجار، و به تتمّ أشغال مختلفة من نشر للغسيل و الغلل و النوم و إحياء المناسبات الاجتماعية كما يمكن أن تتوفر المساكن على اسطبل و حجرة ذات مدخل مستقل لاستقبال الضيوف، و قد تضم مساكن الأغنياء منها حمامات خاصة تغني النسوة الخروج الى الحمامات العامة الكثيرة الانتشار بالمدينة المغربية، إضافة الى توفّرها على مساحة إضافية تستغل كحدائق.

خصائص العمارة السكنية ببلاد المغرب:

إنّ اول مظهر يلفت المتمعّن في عمارة المساكن الإسلامي أنها تمتاز ببساطتها من الناحية الخارجية، ما يعبر عن قيمة اجتماعية نحنّ اليها اليوم و تتمثل في التواضع و عدم التظاهر، و ذلك نزولا الى ما دعى اليه الدين الإسلامي الحنيف من مراعاة مشاعر الناس و عدم استعراض القوة و الثراء، فبساطة هذه الواجهات عبّرت عن رغبة الناس في عدم اظهار قدراتهم المالية ومكانتهم الاجتماعية، ما خلق مجتمعا تسوده المساوات و التكافل و مراعاة حق الجار.

تشيد المساكن في مجموعة متراصة فيما بينها، هذا التوجه الإيجابي في تصميم العمارة الإسلامية ترتب عنه تحقيق عدّة اعتبارات اجتماعية (الجار الجنب) و اقتصادية (توفير العقار و المادة البنائية والجهد و المال)، وأمنية سواء بحفظ العرض عن طريق إستغلال السطوح كمعبر للنساء دون إدراكهن من الأجانب، وقد شدّت هذه الظاهرة إنتباه القنصل الأمريكي " وليام شالر " بالايالة الجزائرية بالجزائر المحروصة، كما تحفظ النفس من خلال تشكيلها حزاما أمنيا موحّدا و أصمّا خاصة في الجوانب المطلة على الفياصل الموجودة بين الاحياء السّكنية و أسوار المدينة.

من مظاهر العمارة السكنية أيضا خط القطاع الخارجي النّاتج عن التوجّه العمودي للبناء، حيث تزداد البروزات تدريجيا من الأسفل إلى الأعلى هذا ما يساعد على الانتفاع بالفراغ العلوي إضافة الى تظليل جوانب البناء المطلة على الشوارع. ظهر هذا النمط المعياري أول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية بالمدينة المنوّرة بموافقة سيد الخلق محمد صلّى الله عليه وسلم شرط التوسع قدر الحاجة مع ضرورة احترام حق الجار.

تعتبر المداخل من وسائل الاتصال بين داخل المسكن وخارجه و قد جاء تخطيطها هادفا بجعلها متناكبة ومنكسرة في الواجهات الخارجية المطلة على الشوارع الثانوية و الغير النافذة، ما خلق حاجزا للرؤية لعابري هذه الشوارع باستثناء الرئيسية منها التي يسقط فيها هذا الشرط لاتساعها، و لتحقيق ذلك حرص المعماري على توجيه الواجهات الرئيسة نحو الشوارع الأكثر خصوصية و فتحت مداخلها عليها.

حرص المعماري المسلم على تكييف المسكن الإسلامي بشكل يتناسب مع عامل المناخ خاصة في المناطق الحارة وفي هذا مقصد ديني هام يتمثل في تحريم التعرّي لدى المسلمين، ما فرض عليهم توجيه مساكنهم الى الداخل و لذلك اعتمدوا على مجموعة من الوحدات و العناصر المعمارية في تشكيل هياكلها، نذكر منها الصحن الذي يعتبر عنصرا مهما في توزيع الحركة والانتقال و الاتصال بين خارج المسكن و ما بداخله من الوحدات الرئيسية و الفرعية.

يعد الصحن أيضا المتنفس الرئيسي للبناء، فمنه يستمد الهواء والضوء بواسطة مداخل ومنافذ الغرف التي تطل عليه وتتغذى عبرها مختلف مرافق المسكن، وباستعمال الاروقة في بعض المساكن بحيث تضمن هي الأخرى المعالجة المعمارية لبعض التغيرات المناخية وذلك بالتقليل من شدّة التيارات الهوائية الباردة وأشعّة الشمس الحارقة ومن الأمطار الغزيرة في المواسم الممطرة، ويعد الصحن أيضا مرشّحا طبيعيا للأتربة العالقة في الهواء المقيّد الحركة داخل الصحن بسبب قلّة النوافذ المفتوحة على الخارج.

للصّحن قيمة اجتماعية هامّة باعتباره يوفّر الخصوصية و يعتبر متنفسا للمرأة لكون مساحته محجوبة و مكشوفة في ان واحد ما يوفّر الرّاحة للمرأة و تعويضها عن الفضاء الخارجي بإرفاقه بمجموعة من الخدمات كالأحواض المائية و الفسقيات التي كانت منتشرة بمساكن مدينة فاس، إضافة الى استغلال هذه المساحة في المناسبات الاجتماعية كالأعراس و حفلات الختان و غيرها.

توجيه النّوافذ نحو الداخل و ما أشرف منها على الشوارع تتم سترتها بالشبابيك او المشربيات، إضافة الى عمل الملاقف التي تكون أعلى الجدران و ذلك لمبدأ الخصوصية و المحافظة على نقاوة الهواء، إضافة الى الانارة مع جعلها في أماكن محدّدة لا تضر بمستعملي فضاءات المساكن.

توفر المساكن المغربية على السطوح المحاطة بالجدران الساترة ما يسمح باستعمالها للترويح عن النفس من طرف النسوة، أو للنوم صيفا و في المناسبات الاجتماعية المختلفة، و قد ذكر حسن الوازن الفاسي في وصفه لدور مدينة فاس أنّها كانت تتوفّر على سطوح بها منتزها يشتمل على عدّة حجيرات فسيحة و مزخرفة تتسلّى فيه النّساء عندما يتعبهنّ العمل اذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلّها.

جعل الوحدات الخدمية في المساكن الكبيرة او القصور في الطابق الأرضي مثل المخازن و حجرات الخدم و قاعات الاستقبال الخاصة بالضيوف، هذا ما يوفر خصوصية أكثر للمنزل.

وضع أماكن النوم في مؤخرة المسكن أو في الطابق العلوي، بحيث تكون بعيدة عن أعين الزوار و الخدم.

إنّ تخطيط المسكن الإسلامي يعكس حرص المسلم على إكرام ضيفه، بتخصيص مساحة له من هذه البناية كقاعة الاستقبال التي تكون بالطابق الأرضي قريبة من المدخل، ولم يتوقف الامر على هذا الاجراء بل امتدّ الى ابتكار نوع من المساكن تعرف بدار الضّيافة.

بما أن الدين الإسلامي دين طهارة فقد أثّر ذلك على تركيبة المسكن الاسلامي من خلال الملاحق التي ضمّها مثل الاحواض و الفسقيات، إضافة الى تجهيزها بالحمّامات الخاصة و الكنانيف.

المصادر والمراجع :

. العبدري (محمد البلنسي) ، **الرحلة المغربية**، تقديم، سعد بوفلالة، ط.01، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.

. البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

. الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.

. المراكشي (محيي الدين عبد الواحد إبن علي التميمي)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مطبعة بريل، ليدن، 1881

. المراكشي (إبن عذارى)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق، ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، ط. 03، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1982.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. لوطورنو (روجي)، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

. الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) ، **وصف إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

. سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط.01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.

. عزب (خالد)، **فقه العمارة الإسلامية**، دار النشر للجامعات، مصر، د.ت.

. إبن الرامي (أبو عبد الله محمد)، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق، فريد بن سلمان، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999.

. محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، عالم المعرفة، الكويت، 1988.

. إبن بطوطة، رحلة إبن بطوطة.

. إبن جبير، رحلة إبن جبير.

عمارة الحمامات بالمغرب الإسلامي

نشأة الحمام بالمغرب الإسلامي:

الحمّام منشاة معمارية دخيلة على المجتمع الإسلامي، كونها عرفت عند المجتمعات القديمة مثل الرومان و البزنطيين، الا أنّ الصورة السيئة عن الحمامات القديمة جعلت المسلمين يعزفون عنها خاصة في الفترة النبوية و الخلافة الراشدة.

لم يدم هذا العزوف طويلا حتّى تبنّى المسلمون هذا النّمط العمائري خاصة مع قيام الدولة الاموية التي حرص خلفاؤها على تجهيز قصورهم بالحمامات و جعلها غاية في دقة التصميم المعماري و الجمال الفنّي ، و ذلك لتحقيق الرّاحة الجسدية و النفسية لهم و نذكر منها " حمام قصر عمرة " الذي شيد على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، و من حينها تواصلت عملية إقامة هذا النوع من العمائر، حيث أحصت المصادر التاريخية و الجغرافية العربية المئات منها بالعديد من مدن العالم الإسلامي بمشرقه و مغربه.

تشير الدراسات التاريخية الى انّ عمارة الحمامات تعود الى فترة متقدّمة من تاريخ المغرب الإسلامي، فأقدمها بإفريقية من عمل الاغالبة كحمامات القيروان وحمام ابن الزمرد بسوسة و المؤرخة باواخر القرن الثاني للهجرة الموافق للقرن الثامن ميلادي.

عرفت هذه البنايات خلال القرن الرابع والخامس هجري الموافق للقرنين العاشر والحادي عشر ميلادي انتشارا كبيرا بالمدن المغربية، فقد ذكر إبن حوقل أنّه كان بمدينة المهدية التي زارها سنة ثلاثمائة وسبع وثلاثين للهجرة " حمامات حسنة وخانات ..."، في حين كان بمدينة صبرة المنصورية أيّام عمارتها ثلاثماية حماما على حدّ قول الادريسي.

كما أحصى البكري بمدينة القيروان خلال الحكم الزّيري لإفريقية ثمانية و أربعين حمّاما، و بمدينة تونس خمسة عشر حمّاما من ضمنها حمّام سوق القرانة الذي شيد أواخر القرن الرابع

الهجري الموافق للقرن العاشر ميلادي، و أشار أيضا إلى وجود حمامات بمدينة بسكرة و مدينة ميلة.

الجغرافي الادريسي هو الاخر قدّم وصفا واف لمدن بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر ميلادي الذي يصادف قيام الدولة الموحديّة ، و رغم أنّه لم يخص هذا النوع من البنايات بالذّكر بعدد من المدن الهامّة مثل مراكش و الرّباط و سلا و فاس ، و قلعة بني حمّاد و بجاية وقسنطينة وتلمسان و غيرها إلا انّه قدّم في كتابه " نزهة المشتاق " مؤشرات اقتصادية و معمارية هامة بهذه المدن ككثرة الأسواق و المساجد، ما يؤكد على قيام هذا النّوع من المنشآت و بكثرة و ذلك لارتباطها العضوي ببعضها البعض. و قد أكّد ذلك ابن أبي زرع عند تأريخه لمدينة فاس خلال الفترة المرابطية و الموحدية حيث ذكر في كتابه " روض القرطاس" أنّه كان بها ثلاثة وسبعين حماما وفي نفس المقام أشار الحسن الوزان الفاسي أنّ من ضمن الاعمال المعمارية للخليفة الموحّدي المنصور بمدينة الرّباط الحمّامات.

تواصلت عملية إنشاء الحمّامات ببلاد المغرب بعد سقوط الدولة الموحديّة و قيام الدول الثلاثة (الحفصية، الزيانيّة، المرينية) ، و تفيد الدّراسات إلى ارتفاع عددها المذهل بعاصمة الحفصيين تونس، التي أحصى بها الباحثون مائة حمّام، مثل حمّام جامع الهواء و حمّام العبدي و حمّام ابن حكيم و حمّام زرقون و حمّام الرميمي و حمّام سوق البلاط، هذا النمط المعياري كان قائما أيضا بالمدن المرينية مثل فاس التي كان بها ثلاث وعشرون حماما موزّعا بين عدوة القرويين و عدوة الأندلسيين.

مدن المغرب الأوسط ملك بني زيّان هي الأخرى شهدت كثرة الحمّامات بها، و الى ذلك أشار حسن الوزّان الفاسي بمدينة تلمسان بقوله " و بها كذلك عدّة حمّامات و فنادق....".

المخطّط العام للحمّام:

نلج إلى الحمّام عبر مدخل يفتح على سقيفة تؤدي بنا الى قاعة كبرى تعرف بقاعة منزع اللباس، و هي من أوسع الفضاءات و أجملها بعمارة الحمّام، و بها دكّانات و مقصورات لاستراحة المستحمّين.

تلي القاعة السّابقة الذّكر القاعة الباردة، نصل اليها عبر باب يفصل بينهما، وهي خالية من ايّ وسيلة تسخين وتستعمل في الشّتاء لخلع الملابس.

نصل بعدها بالتدرّج الى القاعة الدّافئة، و تسمّى أيضا بالقاعة الوسطى لأنّها تتوسّط في موقعها و حرارتها القاعة الباردة والقاعة الحارة، و تحتوي على دكانات لدلك المستحم، و على غرف جانبية تسمّى بالمطاهر و بها أيضا كنيف، و عادة ما يعلوها قبو متقاطع به فتحات للإضاءة تغطيها قطع من الزجاج.

ينتهي بنا المطاف بالقاعة الحارة، و تتميّز عن غيرها بارتفاع درجة حرارتها لقربها من بيت النّار أو الفرناق الذي يوفّر الحرارة للحمّام باستثناء القاعة الباردة بواسطة شبكة من انابيب الماء الحار الموصول بالقدور النحاسية المحصّصة لتسخين الماء او عبر الهواء السّاخن الذي ينتقل من الفرناق الى القاعات بفضل الترويح الذي يوجد أسفلها.

تحتوي هذه القاعة على حوض للماء الحار لتسخين الجسم عبر غطس الارجل او الجسد فيه قبل عملية الدّلك التي خصّصت لها المساطب، و يعلو هذه القاعة قبّة أو قبو دائري أو متقاطع الشكل به مجموعة من الفتحات المكسوة بالزجاج لضمان الإضاءة الطبيعية لهذه القاعة.

تتصل بعمارة الحمّام قاعة واسعة بمدخل مستقل مفتوح على الشارع، و تعرف ببيت النار أو الفرناق، تتوفّر على خزّان كبير لتسخين الماء إضافة الى مساحة لتخزين الوقود و حفظ المعدّات التي يحتاج اليها الوقّاد.

الخصائص المعمارية للحمام:

يشترك الحمام ببلاد المغرب بصفة عامة مع نظيره بالمشرق الإسلامي في مجموعة من الخصائص، تتعلق بالمخطط و العناصر المعمارية و مواد و تقنيات البناء المشكّلة لها.

نظرا لوظيفة هذه العمائر، كانت تشيّد بمراكز المدينة حيث المساجد الجامعة على هيئة الأسواق و المدارس و بالأسواق و بالقرب من أبواب المدينة كبعض حمّامات مدينة القيروان بإفريقية.

عمارة الحمّام الإسلامي بما فيه الحمّام المغربي جاء متأثّرا بالدّين الإسلامي من خلال العناصر المعماريّة الملحقة به والتي تضمن تأدية وظيفته وفق أحكام الشريعة الإسلامية المتعلّقة بأداب الطهارة و توفير الخصوصية للمستحم، إضافة إلى الحرص على سلامته الجسدية.

الحمامات المبنية بالمدن المغربية على نوعين: حمامات عامة و خاصة، هذه الأخيرة قليلة و تقتصر على مساكن الأغنياء و القصور في حين الحمامات العامة كثيرة ما يجعلنا نأخذ صورة عن التركيبة الاجتماعية للمدينة إضافة الى الحياة الاقتصادية بها، فكثيرا ما اقترن ذكرها في المصادر الجغرافية بالأسواق و بالعمائر التجارية الأخرى مثل الفنادق و الخانات.

عمارة الحمام مشيّدة بشكل أفقي، لأنّ هذا التّخطيط كفيل بتحقيق جملة من الوظائف منها التّدرج في درجة الحرارة بفضل تسلسل القاعات عند الدخول و الخروج ، ما يضمن سلامة الأبدان من العلل النّاتجة عن التغيّر المفاجئ في درجة الحرارة.

مراعاة المقاسات في تشييدها و نقصد بذلك إتّساع و ارتفاع جدران الحمامات باستخدام القباب و الاقبية في التّسقيف، هذا ما يوفر حيّزا فراغيّا يساعد على تجدد الهواء و نقاوته، ما يسهّل من عملية التنفّس لدى المستحمّين ، ويجب في المقابل عدم الافراط في سعته، كون ذلك يصعّب من تلبية حاجياته من الحرارة و الماء، و ينتج عنه الزيادة في النّفقات و هذا يتعارض مع مقاصد العمارة الإسلامية فيما يتعلّق بالاقتصاد.

كما انّ اتساع و حدات الحمّام الداخلية و ارتفاعها إجراء معماري هام لتعويض قلّة النوافذ بعمارة الحمّام بشكل عام و انعدامها بالغرفة السّاخنة خاصة.

اكتفى المعماري في اضاءة المبنى بتزويده ببعض الفتحات مغشاة بالزجاج موزّعة على سقفه باتزان لضمان إضاءة طبيعية للحمّام، إضافة إلى تزويده بحرارة الشمس التي تعمل على التخلّص من أنواع من البكتيريا

يحتل الموقد اخر الحمام عند الغرفة الحارة بعيدا عن الغرفة الباردة لتكون درجة الحرارة سارية منه في البيوت على التدرج و التّرتيب، إضافة الى تجنب دخول الدّخان إلى وحدات الحمّام ما قد يؤدّي إلى الاختناق و ذلك بجعل مدخله مستقلا وموجّها نحو الخارج.

كما أنّ لإتّساع الفرناق و مدخله بعد وظيفي يتمثّل في تسهيل إدخال الوقود و تخزين كميّات معتبرة منه.

تشترك الحمامات أيضا في اختيار نوعية مواد و تقنية البناء المستعملة باستخدام مواد بنائية صلبة مثل الحجارة في بناء الجدران السّميكة التي تمنع تسرّب الهواء لوحدات الحمام، إضافة الى مساعدتها في حفظ حرارة الحمام و رفع قبابه الضخمة.

استخدام مادة الاجر على نطاق واسع كونها مادة صلبة و عازلة للحرارة إضافة الى خفتها، ما جعل منها مادة عملية سهلة البناء خاصة في تشكيل السقوف من قباب و أقبية.

الرّخام هو الاخر من أهم المواد المستعملة في عمارة الحمامات ، حيث تفرش به الأرضيات لما له من مزايا عديدة فهو ببرودته مقاوم للحرارة، و لصلابته و قابليته للصّقل الجيّد يعكس البخار هذا ما ينتج عنه تلطيف الهواء.

أهميّة الحمام:

الأهمية الاجتماعي:

إضافة الى الدور الأساسي للحمّام و المتمثل في النّظافة و الطّهارة يعد مكانا مناسبا للتزيّن للرجل و المرأة على حدّ سواء خاصة خلال المناسبات مثل الزواج، فقد كانت بنات فاس خلال تجهيزهنّ للزفاف يذهبن للاغتسال بالحمّام كلّ ليلتين لمدّة خمسة عشر يوما قبل موعد الزّفاف.

الاهميّة الصّحية:

يلجأ سكان بلاد المغرب إلى الحمام للتداوي، هذا السلوك المألوف في المجتمعات العربية، و نظرا لرطوبته و حرارته فهو مكان مناسب لمعالجة الكثير من العلل و الأمراض، مثل الحصى و المثانة و البرد الشديد و علاج القمل و بعض الأمراض الجلدية.

الاهميّة الاقتصادية:

نظرا لوظيفة الحمّام الرئيسية المتمثلة في الطّهارة، فهو بذلك قد ساهم في تنشيط العديد من الصناعات كصناعة الفحم و الخشب، و صناعة العطر و الصابون و النسيج و غيرها، إضافة الى تنشيط بعض الحرف مثل حرفة الحلاقة.

المصادر والراجع:

. البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

. الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.

. إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. لوطورنو (روجي)، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

. رويس (منير)، **حمامات إفريقية في العهد الوسيط**.

. الصولي (علي)، **الحمام الإسلامي**.

مصادر و منشآت الماء ببلاد المغرب الإسلامي

الأنهار والأوديّة:

حرص المسلمون في إنشاء مدنهم على وفرة المياه، لذلك نجد أنّ اكثر المدن الاسلاميّة خاصة ببلاد المغرب تتوفّر مواضع أو مواقع إنشائها على هذا المظهر الجغرافي، نذكر منها مدينة بغداد العباسيّة على نهر دجلة و مدينة القاهرة العبيدية على نهر النّيل و مدينة تاهرت الرستمية على نهر مينة و مدينة المسيلة على نهر سهر بالمغرب الأوسط و مدينة فاس الادريسية على نهر فاس بالمغرب الأقصى، و قد تتزوّد المدن بالمياه من هذه المجاري مباشرة باستعمال وسائل نقل مختلفة، مثل مدينة أغمات بالمغرب الأقصى التي كان يشرب أهلها من نهرها في أيّام معلومة من الأسبوع ليحوّل في الأيام الأخرى الى سقي الحقول، و شرب أهل تاهرت من نهر غير نهر مينة يجري من عيون تاتش، و شرب سكان بسكرة من نهر كبير منحدر من جبال الاوراس، و شرب مدينة باغاي و وهران بالمغرب الأوسط من الوادي.

كما يمكن أن تستمد المدن مياهها بواسطة الأنهار الاصطناعيّة، و تتمثل في جداول او ترع او قنوات تشيد أو تحفر في الأرض لتربط المدينة بمصدر الماء، و قد كان هذا النمط من العمائر قائما ببلاد المغرب، فقد جاء في كتاب " تاريخ الخلفاء الفاطميين " أنّ الخليفة المهدي عند تعميره للمهدية أجرى اليها انهارا، و هذا الإنجاز تقليد نقله عن سابقيه من الحكام المسلمين، و يمكن اعتبار نهر الابلة بمدينة البصرة على عهد عبد الله بن عامر (25 –36 هـ /646– 657م) من اقدم نماذجها بالبلاد الاسلاميّة، و توالت بعدها هذه الاعمال، و لدينا أمثلة لها بالمدن العباسية كنهر كراخيا و نهر دجيل ببغداد و نهر الفضل و نهر المهدي بمدينة الرصافة و نهر الاسحاقي بسامراء و نهر الجعفري بالمتوكلية حيث كانت تربط هذه المدن بنهر الدّجلة و الفراة.

العيون:

ذكرت لنا المصادر الجغرافيّة الكثيرة من العيون، كانت تتزود منها مدن المغرب بمياه الشرب، نذكر منها مدينة جزائر بني مزغناي الزيرية التي كان شرب أهلها من عيون البحر، و بمدينة أشير لنفس العهد عينان أحدهما تعرف بعين سليمان و الأخرى بعين تالا نتيرغ، و شرب مدينة ميلة الحمادية من عين السباع و عين الحمى، و شرب مدينة الاربس بإفريقية من عدد من العيون منها عين رباح و عين زياد، و شرب مدينة مراكش على العهد الموحدي من عيون بعيدة خارج المدينة، وشرب أهل فاس لنفس العهد من العيون حيث أحصى بها عبد الواحد المراكشي أربعين عينا، مثل عين خومال و عيون الدباغين و عيون ابن اللصادي، و قد ذكر ابن ابي زرع أنّ مياه العين كانت تجمع في صهريج مربّع ملبس بالرصاص ثمّ يصرف الماء منه بواسطة قواديس من الرصاص، و تمتدّ في المدينة إلى أن تنتهي عند صهريج ثاني هو الآخر من الرصاص و منه يوزع الماء الى السقايات و دور الوضوء.

عرفت مدينة فاس خلال الفترة المرينية و ما بعدها اعتماد عدد كبير من العيون لتلبية متطلبات المدينة من ماء الشرب، فقد جاء في كتاب وصف افريقيا أنه بها على هذا العهد ستماية عينا إضافة الى العيون القديمة التي كانت قائمة على الأقل في الفترة الموحديّة، تواصل استغلالها تحت مسميات جديدة مثل عيون ابن اللصادي التي استغلها المرينيون تحت اسم عيون الكوازين، و قد ذكر روجي لوطورنو في كتابه فاس قبل الحماية عددا منها كعين البغل و عين الخيل و عين أزلطين و عين علّو و غيرها.

المواجل:

عبارة عن أحواض ماء واسعة و عميقة، تكون مكشوفة يجتمع فيها ماء المطر، و يتشكل الماجل من حوضين الاوّل اصغر حجما يتلقى مياهه من الوادي عند جريانه، فيخفف سرعتها و يعمل على تصفيتها، و عندما يمتلئ بالمياه الى ارتفاع معين تتدفق في الحوض الكبير و منه توزّع على المدينة، يراد بالمواجل أيضا خزانات المياه من صهاريج فقد ذكر ابن حوقل أن

بمرسى ارشكول بالمغرب الأوسط مواجل تتزود منها المراكب البحرية بالماء، وأشار البكري إلى الخزانات الأرضية برباط المنستير خلال الفترة الزيرية باسم المواجل.

استعملت هذه البنايات بكثرة ببلاد المغرب الإسلامي خاصة ببلاد افريقية، حيث يعود اقدم ظهور لها بمدينة القيروان الى العهد الاموي، فقد ذكر البكري انه كان بها خمسة عشرة ماجلا أقدمها من عمل الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك بداية القرن الثاني للهجرة، و منها التي هي من عمل الاغالبة أهمّها الماجل الكبير الذي شيده الأمير إبراهيم بن أحمد قرب باب تونس.

كما شيد الاغالبة بمدينة رقادة العديد منها غطّت حاجياتها من الماء و تسقي مدينة القيروان اذا أصابها القحط و جفّت مواجلها، ومن أشهرها الماجل الذي شيده الامير زيادة الله الثالث، و شيدوا أيضا بجبل الصيادة بضواحي مدينة تونس سبعة مواجل.

تواصلت عملية بناء المواجل خلال الحكم الفاطمي، فقد جاء في كتاب تاريخ الخلفاء الفاطميين انّ عبيد الله المهدي احتفر بمدينة المهدية حفائرا عظيمة للمطر، حيث احصى بها البكري ثلاث مائة و ستون ماجلا، و اهتدى الى هذا الاجراء لانّ مياهها غير صالحة للشرب إضافة الى اتخاذ هذه العمائر ضمن الاستراتيجيّة الأمنية للمدينة، تضاف الى تحصيناتها المختلفة احترازا من مداهمة صاحب الحمار لها و محاصرتها، و قد شملت عملية اعتماد المواجن خلال هذه الفترة مدنا كثيرة حيث أشار ابن حوقل الى انّ شرب اهل مدينة برقة و سرت من ماء المطر المختزن في المواجن، و ورد في كتاب المسالك للبكري أنه كان بفج الحمار نواحي قفصة بافريقية على العهد الزيري ماجلا.

ظلّت هذه العمارة قائمة ينتفع بها الرعية ببلاد المغرب الإسلامي واليها أشار الإدريسي عند وصفه لمدينة سفاقس، و استمر الاعتماد على هذه المنشآت الى نهاية الحكم الحفصي لإفريقية، حيث أشار حسن الوزان الفاسي الى أنّه كان خارج مدينة القيروان بعض الخزانات القديمة تتزود بمياه الامطار يورد السكان دوابهم فيها، و تواصل استعمال هذه البنايات بمدينة تونس

لنفس العهد مع إنشاء مواجل جديدة مثل ماجل مصلى العيدين الذي جاء ذكره في كتاب تاريخ الدولتين للزركشي.

الصهاريج:

عبارة عن خزانات تجمع فيها المياه لتوزّع بعدها على كل مرافق المدينة أو توجه لسقي الحقول، عرفت ببلاد المغرب الإسلامي بمدن كثيرة و في أزمنة مختلفة، و قد ذكر ابن حوقل أنّه كان بمرسى أرشكول بالمغرب الأوسط مواجن (خزانات) تتزود بها المراكب الراسية به، و ذكر البكري انّه كان بقصر مدينة طبنة صهريجا يستمد مياهه من نهرها و بالمهديّة أيضا صهريج بجوار جامع المدينة يرفع منه الماء الى قصر الخلافة، وبمدينة قلعة بني حماد صهريج دائري الشكل قطره ستة عشر مترا و جدرانه مشيدة بالحجارة يستمد مياهه من الجداول التي تنحدر من أعلى جبل تاقربوست، و بمدينة قسنطينة داخل اسوارها مسقى يسقون منها عند أوقات الحصار على حد قول الادريسي.

أمّا عن نماذج الفترة المتأخرة نذكر منها خزانات مدينة القيروان بإفريقية على العهد الحفصي أشار اليها حسن الوزان الفاسي و كانت تستمد مياهها من وسلات، و بتلمسان الزيانية صهاريج أهمّها الصهريج الكبير، و قد ذكر التنسي أنّ موضعه غرب المدينة قرب باب كشوط و هو من عمل السلطان أبي تاشفين، و كان يستمد مياهه من مرتفعات المدينة و موجه لسقي البساتين و الحقول خارج أسوارها.

تعرّض القس برجيس لعمارة الصهريج بالوصف خلال القرن 19 م بقوله " .... محفور في الأرض و محاط بأسوار من الطابية، و له شكل مستطيل طوله مائة قدم و عرضه خمسون قدم و عمقه حوالي ثلاثة أمتار، أمّا سمك الجدار المحيط به يقدّر ب 2 م ".

كما كان بمدينة فاس المرينية أحواض ماء كثيرة موزعة على عمائر المدينة مثل المساجد و المدارس كمدرسة الصهريج و الميضأت كميضأة جامع القرويين و هي من أعمال الموحدين

و المرينيين، و توفرت مساكن المدينة أيضا على الصهاريج تستعمل في التنظيف و الاستحمام، قدم لنا حسن الوزان وصفا لها و اختصرنا ما جاء فيها في قوله " يوجد في كثير من المنازل صهاريج مستطيلة يتراوح عرضها بين ستة و سبعة أذرع، و طولها بين عشرة و اثني عشر ذراعا و يبلغ عمقها ستة أشبار أو سبعة تقريبا و كلّها مكسوة بمربعات الزلّيج ...، وفي كلّ جانب من جوانب الصهريج على طوله سقايات منخفضة مزخرفة بنفس الزليج ....".

الابار:

هي حفر الماء و يكون ماؤها في حاجة الى رفعه منها لاستهلاكه، ويعود أصله الى المياه المتسربة في باطن الأرض أثناء التساقط أو رشوحات مياه الاودية و القنوات و السدود و العيون مشكلة ما يعرف بطبقة مائية باطنية بإمكان الانسان أن يصل إليها عن طريق ما يحفره من أبار، و يستخرج المياه المتجمعة فيها بوسائل اخترعها وطوّرها مع مرور الوقت.

عرفت الابار بشمال افريقيا منذ الفترة القديمة، و قد تواصل الاعتماد عليها في الفترة الإسلامية بكثير من المدن ، نذكر منها بئر امّ عياض بالقيروان على عهد عقبة بن نافع (ض)، و ابار مدينة سوق حمزة الحسنية و أبار مدينة باغاي الاغلبية و مدينة هنين التي كانت الآبار مظهرا من مظاهر دورها خلال الفترة الزيانية، و كانت لمدينة مراكش أبار يشرب منها أهلها منذ تأسيسها على العهد المرابطي، و بمدينة فاس المرينية أبار عذبة يتزوّد منها السكان بالماء الى جانب العيون و كان معظمها يتمركز بحي الفخاريين، و امتد استعمال هذه المنشآت الى مدن بلاد الاندلس كمدينة سبتة و مالقة.

انّ استعمال الابار لم يكن مقتصرا على المدن بل عرف انتشارا واسعا على امتداد الطرق التجارية و العسكرية، فقد كانت شرطا ضروريا في إعداد الحمالات العسكرية حيث تسلك الطريق التي بها الابار، ليرتوي منها الجند و دوابهم و يتخذون منها نقاطا مرجعية ترشدهم في مسارهم، ومن أمثلتها احساء عقبة بن نافع رضي الله عنه وهي آبار كثيرة مبنية بخشب العرعار وتعرف أيضا بابار العسكر، والآبار التي حفرها الفاطميون تحضيرا لغزوهم لمصر

بين طرابلس و برقة على طول الطريق المؤدية الى مصر، و لنفس الغرض أمر الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي قادته بحفر ابار على طول الطريق العابرة للمناطق التي كانت خاضعة له من مراكش الى تونس تحضيرا لحملته على افريقية في بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري.

الفقارة:

عبارة عن مجموعة من الابار موصولة فيما بينها بواسطة قنوات جوفية و تمتد من منبع الماء الى نقطة التوزيع حيث القصرية الرئيسية، و منها يتم توزيع الماء باستعمال قنوات تؤدي القصريات الثانوية التي يستفيد منها السكان بالماء، و يظهر ذلك في القنوات المخصصة لهم و تكون كمية الماء الجارية فيها مختلفة و مضبوطة حسب احتياجاتهم، بحيث يتم قياسها باستخدام مكيال الماء.

عرف هذا النوع من المنشآت بمناطق عديدة من البلاد العربية كالحجاز و اليمن تحت اسم الكظامة و الفقير، و باسم الفقارة بإفريقية و المغرب الأوسط خاصة بقصور منطقة توات، و باسم الحضارة بتافيلالت و مراكش بالمغرب الأقصى، و يعود اقدم امتداد تاريخي لها بالمنطقة الى العهد المرابطي على يد المهندس عبيد الله بن يونس و عليه توارث السكان هذه الصنعة.

قنوات و قناطر الماء:

تعتبر عملية جلب المياه الى المدن و توزيعها على مرافقها شرط من شروط اختيار مواضع انشائها بعد تحديد مصدر الماء، و قد اعتمد المغاربة على سبل مختلفة في نقل الماء الى نقاط التوزيع و منها الى مرافق المدينة، و تكون امّا على شكل سواقي محفورة أو مشيدة أرضية او مكشوفة و لدينا امثلة كثيرة لها بالمدن المغربية، فقد استعملت في تزويد مدينة القيروان بالماء على عهد الاغالبة من مدينة رقادة ومن وسلات على عهد الحفصيين، وكان بمدينة طبنة الاغلبية قنوات ماء تشق المدينة، و لمدينة ميلة عين تعرف بعين أبي السباع مياهها

مجلوبة تحت الأرض من جبل بني يارون باستخدام ساقيّة، و كانت مراكش خلال الفترة الموحدية تتغذى بالمياه العذبة من عيون تبعد أميالا عن المدينة باستعمال نفس الوسيلة ، و اعتمدت مدينة سجلماسة على نفس الطريقة لتتزود بماء وادي زير، و في نقل مياه العيون الى مدينة المهدية العبيدية، و في سقي مدينة تلمسان في الفترة المرابطية حيث كانت تمتد القناة من المدينة الى عين الوريط على طول ستة أميال.

تواصل الاعتماد على القنوات الأرضية في تغذية مدينة تلمسان في الفترة الزيانة، الا انّ المصادر التاريخية المعاصرة لهذه الفترة لم تقدم تفصيلا عنها كالتنسي الذي اكتفى بذكر مصادر المياه التي كان موضعها بمرتفعات المدينة، وقد يكون لهذا التكتم علاقة بالاستراتيجية الدفاعيّة للمدينة ودليلنا على ذلك انّ المدينة ظلّت ممتنعة عن المرنيين رغم طرقهم لأبوابها أكثر من مرة وحاصروها لسنوات عديدة، ولم يتجاوزوا اسوارها الى ان تمكنوا من كشف قنوات الماء وقطعها عنها وكان ذلك على عهد السلطان أبي الحسن.

لا نستبعد ان تكون هذه الاستراتيجية قائمة بعدد من مدن المغرب في الفترة الوسيطة، فقد كان شرب أهل مدينة طنجة و زلول مجهول المبتدأ غير معلوم الأصل، و مدينة سبتة التي كان ماؤها مجلوبا اليها في قني من مكان بعيد لا يعلم اصله و لا يعرف من أين مجيئه على حدّ قول ابن حوقل.

كما يمكن ان تكون هذه القنوات على صورة أنابيب فخاريّة أو معدنية، هذه الوسائل التي تستعمل خاصة في تشكيل شبكة التوزيع على مستوى المدن وفي نقل مياه الامطار من سقوف البنايات الى خزاناتها أو الى قنوات الصرف تحت ما يعرف بالميازيب، وقد استعملت هذه الوسيلة بشكل واسع بمدينة فاس حيث ذكر ابن ابي زرع انّ المصامدة استخدموا بها الانابيب الرصاصية لنقل المياه من العيون الى مراكز التوزيع.

استخدم المسلمون طريقة أخرى في جلب المياه الى مدنهم تتمثل في قناطر الماء هذه الوسيلة التي شهدتها الحضارات القديمة مثل قناطر الماء شرق مدينة القيصرية عاصمة

موريطانيا القيصرية، أمّا في الفترة الإسلامية نذكر نموذجا لها شيدها الخليفة الموحدي المنصور بالرباط استعملت في نقل المياه العذبة من عين تبعد عن المدينة إثناعشرة ميلا، و مدينة فاس الجديدة هي الأخرى كانت تتزود بالماء باستعمال القناطر التي صممها مهندس جنوي.

النّاعورة:

هي الة لاستخراج الماء من المجاري ذات التيارات المائية السريعة، تتمثل في عجلة خشبية تتشكل من عدد من الدّلاء تغوص في الماء وتمتلئ و مع حركة دوران العجلة تنتقل هذه الدلاء الى الأعلى لتفرغ في خزّان، يتم وصل هذا الأخير بقنوات لنقل المياه الى نقاط التوزيع.

يعود تاريخ استعمالها الى الفترة القديمة تحديدا الرومانية على يد المهندس المعماري فيتروف في القرن الأول للميلاد، وقد عرفت انتشارا في عامة البلاد الإسلامية حيث ذكرت عند الجغرافيين، ومن مجمل المدن التي استعملت بها مدينة بغداد والموصل والقاهرة والقطائع، و ببلاد المغرب في رفع مياه الصهريج الى قصر الخلافة بالمهدية العبيديّة، و في رفع مياه وادي زير بسجلماسة، وفي رفع ماء نهر فاس إلى المدينة البيضاء المرينية.

المصادر والمراجع:

. البكري (أبو عبيد الله)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

. الإدريسي (الشريف)، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مطبعة بريل، ليدن، 1864.

. إبن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

. الفاسي (إبن أبي زرع)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

. بوطارن (مبارك)، **تطور العمران الإسلامي مدينتا القيروان وسجلماسة نموذجا**، دكتوراه العلوم في الأثار الإسلامية، معهد الأثار، جامعة الجزائر، 2005 – 2006.

. الوزان الفاسي (الحسن بن محمد) ، **وصف إفريقيا**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

. التنسي (محمد بن عبد الله)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق، محمود آغا بو عياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.

. الزركشي (أبو عبد الله محمد)، **تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**، تحقيق وتعليق، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، د.ت.

. عثمان (عبد الستار)، **المدينة الإسلامية**، عالم المعرفة، الكويت، 1988.

. لوطورنو (روجي)، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

. مارسي (وليم وجورج)، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تقديم وترجمة، مراد بلعيد وآخرون، ط. 01، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

الحسن (أحمد)، **علوم وتقنيات في الإسلام**.

. بن عميرة (محمد)، " الآبار وطرق إستغلالها ببلاد المغرب في العصر الوسيط "، مجلة آثار، العدد: 08، معهد الأثار، الجزائر، 2009.

- Berges ; **Tlemcen ancienne capitale du Royaume de se Nom**, Paris, 1859.
- Marcais (W. et G.) ; **Les moniments arabes de tlemcen**, Paris, 1859.

اهم العناصر المعمارية

تمهيد

استعمل المعماري المسلم في تشكيل عماراته أصنافا مختلفة من العناصر المعمارية وذلك بإعادة استغلال العناصر التي عرفت عند الشعوب القديمة أو بابتكار عناصر خاصة بهم، وقد اختلف توظيفها في عمائرهم بناءً على عدّة عوامل كنوعية البناية والوسط الطبيعي الذي أقيمت به، وسنحاول في هذا المقام ذكر أهم العناصر المعمارية التي تشترك فيها العمائر الإسلامية.

الدعامات:

تقام الدعائم لسند الجدران والسقوف وتقويتها ولتحقيق هذه الغاية تُوزع على الأركان أو على البوائك أو تحت الأقواس والعقود، وقد أستعملت في العمارة الإسلامية منذ فترة مبكّرة وبأشكال متنوعة نذكر منها، الدعامات المثمنة الشكل المشيّدة بالآجر بجامع سمراء، والدعامات المستطيلة المبنية أيضا بنفس المادة بجامع أحمد بن طولون بمدينة القطائع بمصر، كما لها أشكال أخرى كالدعامات المتقاطعة والدعامات على شكل حرف T، ومن نماذجها بالعمارة الإسلامية مشهد طباطبه 334 هـ / 943 م من العصر الإخشيدي بالقاهرة، وبمسجد سيدي أبي مدين وقصر أبي الحسن بالعباد وبمسجد سيدي الحلوي بتلمسان، وبالمدرسة البوعنانية بمدينة فاس، وهي من العهدين الزياني والمريني.

الأعمدة:

أهم عناصر الرفع والدعم في العمارة وهي على أنواع، خشبية كالتي استعملت بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة على عهد سيّدنا النّبي محمد (ص)، وبجامع المنصور بمدينة بغداد، إضافة الى الأعمدة الحجرية والرّخامية التي استعملت على نطاقٍ واسع بالعمارة الإسلامية.

يعود تاريخ استعمالها إلى الحضارات القديمة في بلاد الرّافدين ومصر الفرعونية، ومنها انتقلت إلى الإغريق والرّومان والمسلمين الذين أعادوا استغلال أعمدة البنايات القديمة في

بناياتهم المختلفة خاصة بعمارة المساجد، ومن أمثلتها بالمغرب الإسلامي مسجد القيروان والزيتونة بتونس وبمسجد أبي المهاجر الدينار بمدينة ميلة بالجزائر، كما أمّن المسلمون حاجياتهم من هذه العناصر بالاعتماد على الصناعة المحلية.

التّيجان:

هي من العناصر المعمارية المكمّلة للعمود، حيث تتوج جزؤه العلوي وعليها يستند مَنبتُ العقد، وهي الأخرى من ابتكارات الحضارات القديمة، وعرفت تطورا وتنوعًا عند الإغريق والرّومان ومن نماذج هذه الفترة التّاج الكُرَنْتي والتّاج الأيوني.

تواصل استعمال هذا العنصر خلال العصور الإسلامية على شكله القديم أو بإعادة استغلاله بنقله من المعالم الأثرية القديمة، ومع مرور الزمن انفرد المسلمون بطرز خاصة بهم، ومن أمثلتها التّاج الكأسي والتّاج المغربي الأندلسي الذي شاع استعماله بالعمارة المغربية والأندلسية، ولدينا له نماذج بجامع قرطبة وقصر الحمراء وجامع المنصورة وسيدي بومدين وسيدي الحلوي بتلمسان، وبباب الرّواح بالرباط، وبجامع باب البحر بتونس.

كما استعمل المسلمون ببلاد المغرب نموذجا آخر من التّيجان يعرف بالتّاج الحفصي وذلك لكثرة توظيفه في العمارة الحفصية، إلا أنّ جذوره في العمارة الإسلامية ببلاد المغرب ترجع إلى فترة مبكّرة من الحكم الإسلامي لها، حيث استعمل بجامع القيروان وبمسجد سوسة وبرباط المنستير وبصبرة وبأشير وبقلعة بني حمّاد وبمسجد سيدي أبي مروان بعنابة وبمحراب الجامع الكبير بقسنطينة، وبمسجد أبي المهاجر الدينار بميلة، كما أمّن المسلمون حاجياتهم من هذه العناصر بالاعتماد على الصّناعة المحلّية.

العقود:

يعود ابتكاره إلى حضارة ما بين النّهرين، ثمّ انتقل إلى الحضارات التي تلتها كالبيزنطيين والفرس، ثم وصل إلى المسلمين الذين استخدموه على نطاق واسع في بناياتهم خاصة بعمارة

المساجد والمدارس والقصور، وقد أُنتجوا منه أنواعًا عديدة استعملت لغرض وظيفي في حمل السقوف أو لزيادة علوّها باستعمال الأقواس المزدوجة للحصول على إضاءة وتهوية مناسبة في البناية مثل مسجد قرطبة، أو لغرض زخرفي في تزيين المداخل والنوافذ والمحاريب وأبدان المآذن، كما جمع أحيانا بين الوظيفتين معًا، إضافة إلى دوره المعماري في تخفيف ثقل البناء فوق الدّعامات، ولهذا العنصر عدّة أنواع نذكر منها:

العقد النصف الدائري:

يتألف من نصف دائرة لا تدبيب فيه ولا انكسار ولا تجاوز، يعادل ارتفاعه نصف إتّساع فتحتيه وهو أسهل أنواع العقود بناءً.

يصنع هذا العقد بتثبيت الأوتاد من قاعدة واحدة بعدها تتفرّع الأوتاد كلّ وتد لوحده، ثم يوضع وتد خشبي لين يقبل الالتواء على جميع الأوتاد مشكّلاً العقد، حيث يثبت الهيكل في أعلى فتحة العقد بواسطة وسائل الدّعم وفي غالب الأحيان تكون خشبية، ثم يبدأ المعماري بواسطة مادة ليّنة إعطاء شكل لهذا العقد إذ لا يمكن بناء العقد وبناء الآجر على بطنها دون القالب الخشبي.

يرجع استعمال هذا العقد إلى الشعوب القديمة مثل الرومان، أمّا استخدامه عند المسلمين يتّفق الباحثون على أنّ أوّل استعمال له كان في مسجد قبّة الصّخرة بفلسطين 72هـ / 691-692م، ثمّ بالمسجد الأموي بدمشق 87 - 96هـ/ 706- 771م، كما استعمل في العمارة المغربية بكثرة حيث يعتبر جامع القيروان أقدم أمثلتها بعد تجديدات سنة 105هـ/ 724 م.

العقد الحُدوي:

يعرف أيضًا بعقد نعل الفرس، نسبة إلى الحديدة التي تركّب أسفل حافر الفرس لمنعه من التآكل، وهو عقد مستدير يتجاوز محيطه نصف محيط الدّائرة، ويزيد قُطره على ارتفاعه

أو يرتفع مركزه عن رجليه فيتألّف من قطاع دائرة أو أكبر من نصفها، ويمتد تاريخ استعماله في العمارة إلى الحضارة البيزنطية.

سجّل هذا النّوع من العقود وجوده في العمارة الإسلامية المشرقية والمغربية منذ فترة مُبكّرة، وأقدم أمثلته قائمة بالمسجد الأموي بدمشق وبجامع قرطبة بالأندلس ومسجد القيروان والمهدية بإفريقية.

تواصل استعماله في العمارة الإسلامية ببلاد المغرب إلى فترة متأخرة من العصر الوسيط، ومن أمثلتها المسجد الكبير المرابطي ومسجد سيدي بلحسن الزياني بتلمسان وبالمدرسة الشمّاعية الحفصية بتونس.

العقد المنكسرة:

هو عقد يتألّف أصلاً من عقدين مقوّسين متقاطعين عند قمّته، يقع مركز دائرتهما في داخله على مستوى قاعدته، ولقد اختلف الباحثون حول أصله بين الفراعنة والفرس والبيزنطيين.

عرف المسلمون هذا العقد منذ فترة مبكّرة، حيث تدلّ الشواهد المعمارية على أنّ أقدم استخدام له كان بالمسجد الأموي بدمشق، وقام المعماري المسلم بتطويره ليتحصّل على نموذج يعرف بالعقد المتجاوز المنكسر.

العقد المفصّص:

يتألّف من سلسلة عقود صغيرة وأقواس متتالية أو أنصاف دوائر صغيرة متتالية، يُسمّى كلّ منها فصًّا تلتف على بطن العقد وتنتفخ مع فتحته، وهو عبارة عن عقد دائري ذي مركز واحد ينتهي رجلاه بنهاية مستقيمة وتنتهي أقواسه نصف دائرية.

عرف هذا العنصر المعماري بالعمارة الفارسي ومنها انتقل إلى العمارة الإسلامية المبكرة وله أمثلة بالعمارة العبّاسية بالجامع الكبير بسامراء.

استعمل هذا العقد بالمغرب والأندلس بشكل واسع لأغراض إنشائية وزخرفية، ومن نماذجه ما هو قائم بمدينة طليطلة وغرناطة بالأندلس، وبالبوائك المطلّة على صحن المسجد الكبير بتلمسان، وفي زخرفة أبدان المآذن بمسجد أغادير ومسجد أولاد الإمام ومسجد سيدي بلحسن ومسجد سيدي الحلوي بتلمسان أيضًا.

المداخل:

استعمل المسلمون في بناياتهم نوعين من المداخل، يعرف النّوع الأوّل بالمدخل المباشر الذي كثر استعماله في العمارة الإسلامية خاصة بالمساجد، وبالعمائر التجارية كالخانات التي تكون مداخلها مباشرة وواسعة وذلك لتسهيل عملية الدخول إليها خاصة في ظلّ استعمال وسائل النقل من الدّواب المختلفة، وقد يكون مباشرًا بارزًا عن جدران البناية إلى الخارج ومن أمثلته المدخل أسفل مئذنة جامع المنصورة وبمدرسة سيدي بومدين وبمسجد سيدي الحلوي بمدينة تلمسان.

يتمثل النوع الثاني في المدخل المنكسر، وهو شائع بالعمارة السكنية لتوفير الخصوصية، وبعمارة بعض المدارس النّظامية كمدرسة الشّماعية 636هـ/ 1238م والمدرسة المنتصرية 841هـ/ 1434م الحفصيتين بتونس، وبالعمارة العسكرية بشكله البسيط أو المركّب ومن أمثلته مداخل مدينة بغداد، وبأحد المداخل الثلاث لمدينة قلعة بني حمّاد وبقلعة هنين بالمغرب الأوسط.

السقوف:

القباب والأقبية:

اهتم المسلمون بتوظيف القبّة في عمائرهم المختلفة وذلك لدورها الوظيفي والرّمزي في البناية، ومن أنوعها القبّة النّصف الدّائرية التي يمتد استعمالها إلى فترة مبكرة من تاريخ العمارة الإسلامية، ومن أمثلتها لهذا العهد القبّة التي تعلوا مدخل قصر الخليفة المعتصم بسامراء،

وقبّة المحراب بمسجد القيروان بإفريقية، كما أن استعمال القبّة المضلعة لا تقل أهمية عن سابقتها في العمارة المغربية، ومن نماذجها قبّة ضريح وحمام سيدي أبي مدين بالعبّاد بتلمسان وقبّة محراب جامع القرويين بفاس.

استخدم المسلمون أيضا الأقبية بنوعيها المتقاطعة والمهدية بكثرة في تسقيف عمارتهم، حيث تصلح في تسقيف الكثير من الوحدات والعناصر المعمارية كالسقائف والأروقة والسلالم والدّهاليز والحمامات وغرف السجون وخزانات المياه...الخ.

السقف الجمالوني:

استعمل المسلمون أنواعًا مختلفة من السقوف، نذكر منها السقوف المسطحة والهرمية والجمالونية، هذه الأخيرة التي يعود استعمالها إلى فترة متقدمة من التاريخ الإسلامي، نذكر منها سقف المسجد الأموي بدمشق، وسقف المسجد الجامع بالرّقة 155هـ/ 772م، وكثر استعماله ببلاد المغرب والأندلس ولدينا له نماذجًا كثيرة بعمارة المساجد والمدارس، نذكر منها سقف مسجد القرويين بفاس، ومسجد الزيتونة بتونس، والمسجد الجامع المرابطي بالجزائر وتلمسان، ومسجد أولاد الإمام وسيدي بلحسن وسيدي الحلوي وسيدي أبي مدين بتلمسان.

الشمسيات:

تعرف أيضا بالقمريات، وهي عبارة عن نافذة مشبّكة بساتر من الجصّ أو الخشب أو نحو ذلك من المواد، ولها وظيفة زخرفية في البناء بفضل العناصر الزخرفية المشكلة لها، إضافة إلى السماح بإدخال الهواء والنّور بقدر مناسب إلى البناية.

تحتل الشمسيات مواضع مختلفة من البناء، حيث نجدها على امتداد واجهات البناية بأعلى الجدران مثل المدرسة البوعنانية بفاس، وبأعلى واجهات المحراب بمسجد سيدي أبي مدين أو بتجويفه بمحراب الجامع الكبير بتلمسان، وبعنق القبة كالشمسيات المعشقة بقطع الزجاج الملون بقبة محراب مسجد ابن طولون 263هـ/ 876م بمدينة القائطع بمصر.

استعمل المعماري المسلم أيضا أنواعا أخرى من الشبابيك الخشبية في كسوة الشرفات تحت إسم ما يعرف بالمشربيات وذلك من أجل السماح باستعمال هذا الفضاء من البناء دون التعرض إلى أعين الناس، إضافة إلى دورها في الإضاءة والتّهوية وحجب الرّياح والغبار، دون إغفال أهميتها الزخرفية حيث تضفي على المكان منظرا جماليا بفضل العناصر الزخرفية المشكلة لها، كما استخدم المسلمون عنصر الدّرابزين الذي يتمثل في حاجز مخرّم يكون في الغالب من الخشب يركب في السلالم وفي واجهات الاروقة العلوية من البناء و في السطوح، ومن هذا المنطلق استمد وظيفته في حماية الأشخاص من خطر السقوط من الأماكن المرتفعة، إضافة إلى أهميته الزخرفية في البناء من خلال العناصر الزخرفية المشكلة له مثل الأعمدة والعقود، وله أيضا أدوار ثانوية كاستعماله في نشر المنسوجات من الأغطية والزرابي.

الشرافات:

استخدمت للدلالة على ما يوضع على أسوار المدن وأعالي واجهات المساجد والمدارس والقصور والحمامات وبالمآذن والقباب.

استعمل هذا العنصر المعماري بكثرة في زخرفة العديد من البنايات والعناصر المعمارية باستثناء العمائر العسكرية التي ألحقت بها شرافات لأداء وظيفة حربية تتمثل في حماية المدافعين من العدو.

إنّ توظيف المعماري المسلم لهذا العنصر بشكل واسع في زخرفة بناياته جعلته يبتكر أشكالا متنوعة لها، نذكر منها الشرافات المقوسة برباط المنستير وسوسة من الفترة الأغلبية بإفريقية، ويبدو أن هذا العنصر من التأثيرات المعمارية العباسية حيث سبق استعمالها بمدينة بغداد على عهد جعفر المنصور، والشرافات ذات الرأس الهرمي بأسوار بجاية الحمّادية وعنّابة الحفصية، والشرافات البسيطة المستطيلة الشكل بأسوار المنصورة المرينية بتلمسان، كما استعملت الشرافات المضرّسة بأركان بدن مئذنة جامع أولاد الإمام، والشرافات الهرمية المتدرجة

بمئذنة الجامع الكبير وبمئذنة أغادير وبمئذنة سيدي الحلوي من العهد الزياني بتلمسان، وبعدد من مآذن المدارس المرينية كمدرسة الصفارين والمدرسة البوعنانية بفاس، وقد استعملت الشرافات على هذه الصورة الأخيرة بشكل واسع أيضا ببلاد الشام ومصر، نذكر منها شرافات جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع الأقمر من العهد الفاطمي بالقاهرة.

المقرنصات:

المقرنص عنصر معماري استعملت في تشكيله مواد مختلفة من حجارة ورخام وخشب وآجر، وله وظيفة زخرفية وإنشائية في البنايات المعمارية، وفي هذا الصدد نذكر استعماله في زخرفة التيجان الرخامية بالبوائك المطلة على صحن مدرسة الفردوس بمدينة حلب، وفي زخرفة بطون العقود ببعض المدارس المرينية بفاس، وعلى شكل أفاريز تتوج أعلى الواجهات الخارجية للبناية بمدرسة السلطان حسن بالقاهرة، وفي سقوف المداخل بمدرسة زين الدين يوسف والمدرسة الزاهرية بحلب، وفي زخرفة القباب بقبة محراب جامع القرويين بفاس، وفي الحنايا الركنية للقباب وفي حمل شرافات المآذن كالتي استعملت ببعض مآذن مدارس القاهرة مثل مدرسة السلطان قلاوون ومدرسة السلطان الناصر محمد ومدرسة السلطان حسن.

يعود تاريخ ظهور المقرنصات بالعمارة الإسلامية إلى العصر العباسي، وذلك استنادا على بقايا مقرنصات حمام أبي السّعود بسامراء (ق: 3هـ/ 9 م)، وكشفت الشواهد المادية المعمارية أيضا استعمال هذا العنصر ببلاد المغرب، بحيث تعد بقايا المقرنصات التي استعملت في زخرفة الواجهات المطلّة على صحن قصر البحر بقلعة بني حمّاد بالجزائر أقدم نماذجها على الإطلاق، وسار الموحدون من بعدهم على هذا النّهج، حيث ذكر الباحث لُسيان قولفان على أنهم استعملوها في كل معالم الرّفاهية، واستمّر استخدامها عند الزيانيين والمرنيين خاصة بالعمارة الدينية حيث حفظت لنا المعالم الأثرية الكثير منها، ونذكر على سبيل المثال بمدينة تلمسان مقرنصات قبة المحراب بمسجد سيدي بلحسن والقبة المقرنصة بسقيفة مسجد سيدي

بومدين، وفي زخرفة شرفة مئذنة جامع المنصورة، ولدينا أيضا أمثلة لها بالعمارة المرينية بالعقود المقرنصة بمدرسة العطّارين والمدرسة البوعنانية بفاس.

المراجع والمصادر:

- ارزقي شرقي، " مراجعة لمفاهيم وآراء حول المقرنصات الإسلامية "، دراسات تراثية، العدد 02، 2008، ص ص107 – 137.
- لعرج عبد العزيز، " مجموعة المنشآت المعمارية للسلطان المريني أبي الحسن بالعبّاد تلمسان "، دراسات تراثية، العدد 02، 2008، ص ص 49– 106.
- لعرج عبد العزيز، " النظام المعماري لمدارس المغرب "، آثار، العدد: 08، 2009، ص ص87 – 117.
- مارسي وليم وجورج، **المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان**، تقديم وترجمة، مراد بلعيد وآخرون، ط 01، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
- عبد الرزاق أحمد، **العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي**، ط01، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، 2002.
- دحدوح عبد القادر، **مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني**، دكتوراه علوم الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2009–2010.
- Golvin (lucien); **la madrasa médiévale**, edsud, paris, 1995.

فهرس المحتويات

المحاضرة الأولى: الإطار الطبيعي 3

- الموقع الفلكي و الجغرافي للعالم الإسلامي.....3
- المناخ.....4
- الغطاء النباتي و الثروة الحيوانية.....5
- المسطحات المائية.....5
- التّضاريس.....7

المحاضرة الثانية : الملامح العامة للحضارة الإسلامية.....13

- تعريف الحضارة.....13
- عوامل تشكل الحضارة الإسلامية و عناصرها.....13
- مظاهر الحضارة الإسلامية.....13
- الفنون الزخرفية.....15
- الاقتصاد.....16
- الحياة الفكرية.....18

المحاضرة الثالثة : العمران و دلالته 20

- تعريف العمران.....20
- تعريف العمارة (البنيان).....20
- دلالات العمران.....20
- منظور الإسلام إلى العمران.....22

المحاضرة الرابعة: أهم مصادر العمران الكتابية.....24

- أنواع المصادر الكتابية.....24
- المصادر التاريخية.....24
- المصادر الجغرافية.....24
- كتب الرحالة.....25
- كتب فقه العمارة الإسلامية.....25
- أهمية المصادر الكتابية في دراسة العمارة و العمران.....26

المحاضرة الخامسة : التحصينات الدفاعية.....36

- مدن المعسكرات.....36
- الفيصل.....38
- الخندق.....38
- البرج.....39
- الرباطات.....40
- القلعة.....42
- دور الصناعات البحرية.....44
- العناصر المعمارية.....45

المحاضرة السادسة : النسيج العمراني و شبكة الطرقات.....47

- المسجد الجامع.....47
- الشوارع و الطرقات.....48
- الأسواق.....49
- الأحياء السكنية.....50
- التحصينات.....50
- الأرباض.....52

- المقبرة و مصلى العيد.....52
المحاضرة السابعة: أساليب البناء و مقوماته الفنية.....56
- تقنية البناء المنتظم.....56
- تقنية البناء بالتناوب.....56
- تقنية البناء بالسنبلة.....56
- تقنية آدية (الشناوي).....57
- تقنية البناء بالطابية.....57
المحاضرة الثامنة: أنواع المدن.....59
- مدن الخلافة.....59
- مدن عسكرية.....60
- مدن تجارية.....63
- المدن الدّينية.....64
المحاضرة التاسعة: تخطيط المدينة الإسلامية.....66
- شروط اختيار الموقع و الموضع.....67
المحاضرة العاشرة: الوحدات الاقتصادية.....84
- نشأة الأسواق.....84
- المعايير والعوامل المتحكمة في انشاء والتوزيع.....88
- نماذج من البنايات التجارية.....91
المحاضرة إحدى عشر: محاضرة الإطار الجغرافي و التاريخي و الحضاري لبلاد المغرب.....95
- الإطار الجغرافي لبلاد المغرب.....95
- الإطار التاريخي و الحضاري لبلاد المغرب.....96
- دولة بني مدرار (140 – 354 هـ / 757 – 965 م).....96

- الدولة الرستمية (160 – 296هـ / 776 – 909م)..... 97
- الدولة الإدريسية (172 – 375هـ)..... 100
- الدولة الأغلبية (184 – 296هـ / 800 – 909م)..... 102
- الدولة الحمّادية (407 – 547هـ / 1014 – 1152)..... 105
- الدولة المرينية (668 – 957هـ / 1269 – 1554م)..... 106
- الدولة الزّيانية (633 – 962 هـ / 1235 – 1555 م) 110

المحاضرة إثنا عشر: عمارة المساجد 115
- تاريخ عمارة المساجد المغربية..... 115
- العناصر المعمارية المشكلة لعمارة المسجد..... 120
- الخصائص المعمارية للمساجد المغربية..... 123

المحاضرة ثلاثة عشر: عمارة المدارس بالمغرب الإسلامي..... 128
- تاريخ ظهور المدارس النظامية ببلاد المغرب الإسلامي..... 128
- أسباب ظهور المدارس..... 129
- مسميات المدرسة المغربية..... 130
- الدراسة الوصفية لنماذج من المدارس المغربية..... 130

المحاضرة أربعة عشر: عمارة المساكن ببلاد المغرب الإسلامي 138
- العوامل المؤثرة في تخطيط العمارة السكنية..... 139
- وصف مخطّط المسكن..... 141
- خصائص العمارة السكنية ببلاد المغرب..... 142

المحاضرة خمسة عشر: عمارة الحمامات بالمغرب الإسلامي..... 147
- نشأة الحمام بالمغرب الإسلامي:..... 147
- المخطّط العام للحمّام:..... 149
- الخصائص المعمارية للحمام..... 150

- أهميّة الحمام.....152

المحاضرة سادس عشر: مصادر و منشآت الماء ببلاد المغرب الإسلامي.....154

- الأنهار والأوديّة.....154
- العيون.....155
- المواجل.....155
- الصهاريج.....157
- الابار.....158
- الفقارة.....159
- قنوات و قناطر الماء.....159
- النّاعورة.....161

المحاضرة سابعة عشر: اهم العناصر المعمارية.....163

- الدعامات.....163
- الأعمدة.....163
- التّيجان.....164
- العقود.....164
- المداخل.....167
- السقوف.....167
- الشمسيات.....168
- الشرافات.....169
- المقرنصات.....170